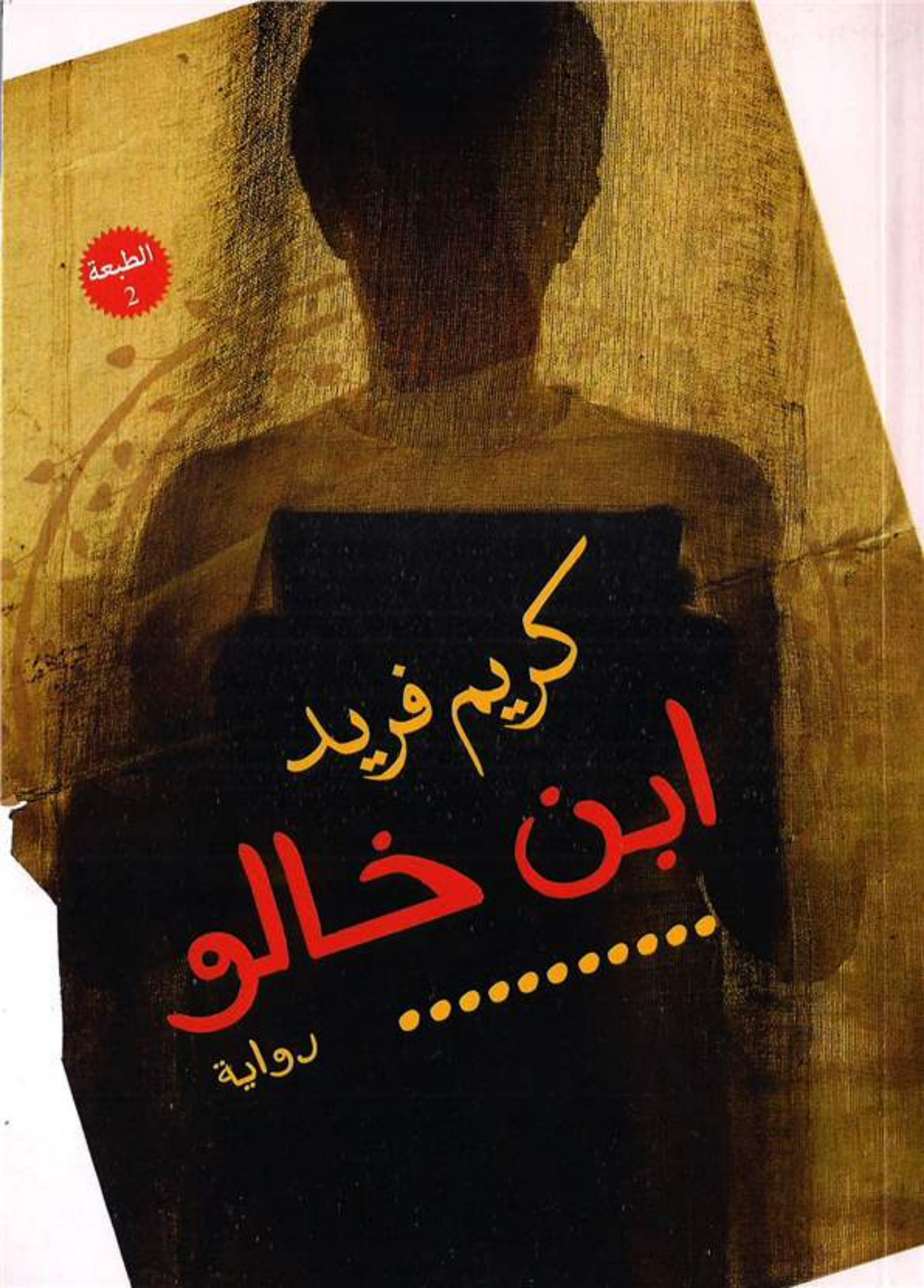
الطبعة
2
كريم فريد
ابن خالو
.....
رواية

ابن خالو

رواية

كريم فريد

إهداء إلى

أبي وأمي الحبيبين،

وماهر جواد واسراء فيصل وآخرين.. (ليتهم يعرفون أنفسهم)!

"وَإِذَا أَخْطَأَ أَحَدٌ وَسَمِعَ صَوْتَ حَلْفٍ وَهُوَ شَاهِدٌ يُبْصِرُ أَوْ يَعْرِفُ، فَإِنْ لَمْ يُخْبِرْ بِهِ حَمَلَ ذَنْبَهُ"..

سفر اللَّاوِيِّينَ

1

في العام 1655 استعمل عالم الرياضيات جون واليس الرمز ∞ للتعبير عن مصطلح لا نهاية، أي ما لا حدود له أو غير المنتهى، كناتج لعدد من العمليات الحسابية المعقدة، غير محدودة الناتج.

تاريخيا قد يبدو الرمز جديدا نسبيا، لكن المعنى الدال عليه يعود لعصور بعيدة ويتصل بعديد المفاهيم الفلسفية واللاهوتية عند الحضارات القديمة.

على مدار قرون مضت بحث فلاسفة وعلماء رياضيات وفيزيائيون في علوم الطبيعية والإنسان، الكون والخلق بفرضية ثابتة وأكيدة تشدد على حتمية وجود نقطة بداية لكل شيء وإن اختلفوا في تعريف ماهية تلك النقطة.

الأمور في شارع الشهيد – كما أظن– تتفق مع فرضية البداية السابق ذكرها؛ فالبداية، أو سأقول البدايات، في الشارع مبهمة، غير واضحة المعالم، مختلف عليها للدرجة التي يصعب على أحد كان تحديد ملامحها والجزم بقطعية ماهيتها، أو مجرد الاتفاق على نقطة ارتكاز ثابتة ووحيدة لكل ما جرى.

- بتركب أختك يا نجس!!

جملة ألقاها حمادة ربحو -الشيخ أبو معاذ- منذ عشرين عاما على جسد أحمد الكبير، بمسمع ومرأى من أهل الشارع جميعا، ونور الصغير الذي ترسخت الجملة في أعمق نقطة بعقله، كنقطة بداية لكل شيء، لكنه اكتشف خطأ اعتقاده مؤخرا عندما قررت الجدة البوح بما لديها من أسرار وهي على فراش الموت.

الحاجة عفيفة جدة نور، امرأة قوية، حنانها ظاهر، سمحة الطلة، تنحدر من أصول ريفية كسائر أهل المدينة، ضاق صدرها ذرعا بما حمله طوال عشرين عاما، فقررت البوح لحفيدها وهي على فراش الموت كوسيلة أخيرة للتكفير عن ذنب اقترفته، ولم تقو على الاعتراف به قط.

حكت الجدة لنور عن ثلاثة رجال جاءوا إلى المدينة منذ زمن بعيد سعيا وراء الرزق، وحطوا رحالهم في الشارع، استوطنوه؛ فحلت عليهم البركات وفتحت لهم أبواب خير غيَّر نفوس بعضهم، ظنا منها أن حكايتها الصغيرة هي نقطة البداية لكل شيء.

حمادة رنجو النجار الذي صار بقدرة وفضل العلي الكريم الشيخ أبو معاذ! يمتلك بداية يعتقد فيها الحقيقة، تلقاها عن أبيه السكير، تتمحور حول فُوَّهة بندقية ورصاصة طائشة.

عبد الله أو بودي -كما يناديه نور- يمتلك هو الآخر بداية، سمعها ذات يوم من أمه، فراقت له، واستحسنها فؤاده، ورفض إنكار أبيه الحاج مصطفى السني الحاسم لها، فقرر أن يخفيها بقلبه لسنوات قضاها يفكر في الكيفية التي سيسترجع بها حقهم الذى سلبهم إياه الحاج راجح.

راضي والد نور المقيم في دبي، أسماء الأخت الصغرى لعبد الله وآخرون جميعهم يعتقدون الصدق في بدايات يمتلكها كل منهم، فالأكيد أن لكل فرد في الشارع بداية خاصة، لكنهم سيشتركون جميعا رغم اختلاف البدايات في نهاية واحدة، ذلك إن لم تكن الأبدية واقعا.

2

2 من مايو 1993، شارع الشهيد طويل ممتد، مائل بدرجة، يربط بين شارع النيل الرئيسي؛ الذي يشطر الحي لنصفين، وبين شارع الثورة العشوائي.

للشارع اسم دال، احتفظ به منذ سنوات بعيدة، شارع الشهيد عامر راجح، الشاب الذي ذهب إلى الحرب ولم يعد حتى الآن، اعتبر الجيش عامر شهيدا، وكرمته الحكومة بإطلاق اسمه على الشارع، بمرور الأيام وكعادة أهل الشارع نسى الجميع اسم عامر، بقى لقب الشهيد دالا عليه.

منذ نصف ساعة أيقظت الحاجة عفيفة حفيدها نور، ذا العشرة أعوام، أمرته بالاغتسال، شاركته الإفطار، شددت عليه في النزول مبكرا إلى المسجد ليصلى الجمعة قائلة:

- اللي يوصل الجامع قبل الخطيب ما يطلع المنبر ربنا يرزقه بجمل كبير في الجنة، المتأخر يا دوب يأخذ فرخة.

نور ولد وحيد هادئ ذكي، يحب جدته الحنون، ينصاع لما تقوله حرصا على رضاها، بخلاف أمه فاتن التي تعامله بجفاء يراه غير مبرر، الأم لا تكلُّ من إصدار الأوامر، تعاقب نور على أقل

الأخطاء، حتى ودَّ لو أنها غابت عن المنزل، تذهب بعيدا، تسافر لأبيه راضي المقيم في دبي منذ سنوات.

علاقة نور بوالده راضي غريبة، معقدة، الولد نشأ في كنف أمه، شرب الحنان من حضن جدته، في الوقت الذي انشغل فيه الأب بجمع الأموال، ولم يكن له وجود فعلي بحياة الصغير!

راضي ضيف خفيف، يأتي إلى المنزل مرة كل عام، يدخل حاملا الهدايا في يده، يشارك فاتن الفراش، الأمر الذي يربك نور ويسبب له شعورا غريبا بالكراهية تجاه الرجل، سريعا ما تنتهي الأجازة، يعود راضي من حيث جاء، تاركا خلفه نور وفاتن والجدة العجوز وحيدين.

يهبط نور الدرج، يصل إلى المدخل، يتوقف فجأة، يتطلع إلى أعلى بحذر، بمرونة ولين ينحشر جسده الصغير أسفل الدرج، يخرج علبة سجائر مخبأة بعناية، يسحب منها ثلاث سجائر، يخبئ العلبة في جوربه، تماما كما علمه ميزو جارهم، أخيرا يخرج الفتى إلى الشارع.

الشمس ساطعة بالسماء، أشعتها تغزو ثلثي مساحة الشارع عرضا، الثلث المتبقي تظلله فروع أشجار كثيفة، أصولها بداخل المدرسة إلى جوار السور متوسط الارتفاع.

يلقى نور نظرة إلى أعلى، يعلم أن أمه لا تستيقظ الآن، يتأكد من خلو الشرفة، الجدة مشغولة بدواجنها، على الجهة المقابلة -إلى اليمين قليلا- يجلس أحمد الكبير فوق مصطبة صخرية أمام باب منزلهم، غافيا كعادته، يذهب إليه نور، يجذبه من جلبابه الرمادي الرث، يبدأ في مداعبته بخشونة طفولية، ينتبه أحمد لمداعبات صديقه الصغير، يفيق من غفوته، يبتسم في خجل لا يتماشى مع ملامح وجهه الغليظة، يضع أصبعيه السبابة والوسطى فوق شفتيه الغليظتين ويطوّحهما في الهواء.

بمكر طفولي ظاهر يسأله نور:

- عاوز سيجارة؟

يُسرع أحمد من وتيرة حركة يديه ويحاول الرد.

- س كارة.. كارة .

من جديد يرفع نور عينيه إلى الأعلى، الشرفة لا تزال خاوية، يلقي بنظرة يمنة ويسرة، يقلب الشرفات بحثا عن مراقب، يرى الحاج مصطفى السني ووالده عبد الله قادمين نحوهما، لا يعيرهما اهتماما، يصطنع الدهاء، يدس السجائر الثلاث بيد أحمد الكبير الضخمة.

تخرج عزة سكر من شباك الدور الأرضي حيث تعيش مع أخيها المجنون كما يطلق عليه الصغار، يبدو عليها الإجهاد، بطنها تزداد انتفاخا يوما بعد يوم، لعلها مريضة، هكذا يظن الصغير، بابتسامة واهنة تلقي عزة التحية، وتسأله بود عمن أعطى أحمد السجائر، يجيبها بأن رجلا غريبا، مر بالشارع، ألقى لأحمد السجائر ومضى، ببلاهة يبتسم أحمد، لا تعقب عزة، تعلم أن نور الصغير يشتري السجائر لأحمد بانتظام، الولد حنون كجدته، يرتفع صوت المؤذن بالتكبير إيذانا ببدء شعائر صلاة الجمعة.

يستأذن نور من عزة سكر، أو خالته عزة كما تأمره جدته أن يناديها، يسير باتجاه المسجد عند أول الشارع.

أحمد الكبير يعاني "التَّوحُّد"، يعيش في منزل متواضع مع أخته ذات الجمال الظاهر رغم الفقر، ورثاه عن أبيهما الراحل الريس إبراهيم السوهاجي، يحتل الأخوان الطابق الأرضي بالمنزل، يؤجران الطابق الأول العلوي لمستر سعيد مدرس اللغة الإنجليزية، الذي يقيم وحيدا في الشقة، ويستخدمها مركزا للدروس الخصوصية.

إيجار الشقة زهيد، لا يسمن ولا يغنى من جوع، لا يكفي لشراء الطعام، لا يغطي ثمن علاج أحمد، تضطر عزة للعمل في منازل الشارع، تنظف الشقق وتغسل السجاد. الحاجة عفيفة بنت

أصول، معروفة بالكرم، تدرك أصل عزة الطيب، تكرم عزيز قوم ذل، تعاملها بحب وتجود عليها، تأبى أن تسمح للفتاة بتقبيل يديها.

تقول الجدة إن نساء الشارع منافقات ، يظهرن شفقة على عزة، ويحسن إليها، يمنحنها ما تبقى من طعامهن، لكنهم يغرن منها، جمالها البكر يثير حفيظتهن، يتطلعن إلى جسدها بنفور وحسد، ويمنعن الرجال من التواجد في المنزل طالما هي فيه!

سبحان الخالق المصور، الذهب يلمع في التراب، وجسد عزة ألماظ يضوي رغم فقرها وثيابها الرثة، ببشرة نضرة ولحم غض طرى كالتين، أبيض كالحليب؛ يفتح الشهية، قوامها ملفوف سامق كالنخل المثمر، رمانها نافر، بطيخها عامر؛ تسرق عيون رجال وشباب الشارع، فتحرق أفئدة النساء اللائي يتحسرن على حالهن ويدفعهن للاعتراض على مشيئة الله:

- يدى الحلق للي بلا ودان.

يهبط الناس من المنازل، يسير الجميع صوب المسجد على عجل، صوت الشيخ أبو معاذ -حمادة ربجو سابقا- يعلو فوق المنازل، يتحرك نور باتجاه المسجد، يمشى على مهل تحت ظلال فروع الأشجار، بمحاذاة سور المدرسة.

دكان عبد الواحد البقال مغلق كعادته وقت الصلاة، سمير فرخة يجلس بداخل دكانه أمام الميزان، يزن دجاجة لامرأة ذات غنج، تفاوضه في السعر، تقترب بجسدها من الميزان، تضع يدها فوق يد سمير القابضة على الدجاجة فيخفق قلبه، تستغل ضعف الرجل أمام الجنس الناعم:

- انت مش عايز تبيعلي والا إيه ؟

تقولها بدلال متعمد، فينهار سمير ويبيعها الدجاجة.

- والله خسرانة، بس انا ما اقدرش ازعلك.

يقولها كذبا، يده المتوترة تمسك بالسكين، تمتد وتقطع عنق الدجاجة، يلقى بها في الحوض، بارتياح تتركه المرأة لتنهى جولتها بالسوق المزدحم وتعود.

يتبع نور طريقه إلى أول الشارع، يصل لمسجد السيد، باب المسجد الصغير مفتوح على شارع الشهيد، يعبر الباب الصغير، لا يدخل، كان قد توقف عن الصلاة بمسجد السيد منذ أن صار أبو معاذ – حمادة رنجو – إمامًا للمسجد!

نور صبي نابه، يكره حمادة ربحو، لا يصدق توبته، يتذكر جيدا نظراته الشرسة لأمه فاتن، يتذكر يوم رآه يتحرش بعزة سكر في مدخل منزلها.

لله في خلقة شؤون! حمادة ربحو النجار سيئ السمعة، يصير إمام مسجد السيد بين ليلة وضحاها؟؟ الفضل يعود للحج راجح كبير الشارع، والسر في اقتراب حمادة من الحاج مصطفى السني والد عبد الله الفتى المنطوي وأسماء الصغيرة.

بدأ الأمر عندما شرع الحاج مصطفى بأعمال التجديد في المحل الرابض عند أول الشارع، قرر تغيير النشاط، وأوكل المهمة لحمادة الذي اقترب من الحاج، سار على نهجه، خلع البنطال والقميص، ارتدى الجلباب واعتمر الشال وأطلق لحيته، تبع خطوات الرجل وصار يصلى بمسجد الصحابة، البعيد نسبيا عن الشارع.

في البداية ظن الناس أن حمادة -المعروف بسوء عمله- يخادع الحاج مصطفى، يحتال على الرجل ابتغاء المصلحة، ومن ثم يعود إلى سابق عهده، لكن أعمال التجديد انتهت، وافتتح الحاج مصطفى مكتبة الإيمان، وصاحبنا حمادة على ذات الهيئة والحال!

سبحان الهادي التواب، حمادة سيئ الخلق والسيرة، صار يركض إلى مسجد السيد فور أن يسمع نداء الحق، صوته الأجش الذي لطالما سبّ به الدين جهارا، صار يعلو بالأذان، ينبّه الغافلين، يدعو الطائعين لأداء الفرض، يوقظ النائمين ويحثهم على القيام لصلاة الفجر، مؤشر الراديو في ورشة النجارة لم يعد يتحول عن إذاعة القرآن الكريم، كتاب الله لا يفارق جيبه، يبكي الرجل التائب كلما شاءت الظروف، تغيب الشيخ سيد صاروخ عن الحضور، وقف إماما لنفر من المصلين.

الشيخ سيد صاروخ إمام المسجد رجل هرم، أصابه الخرف وهزمه المرض، لم يعد يقوى على القيام بمهام الإمامة بالمسجد، الناس تحتاج لإمام كفء واع، يصلي الظهر بأربع ركعات وليس ثلاثا كما صار الشيخ سيد يصليها سهوا!

عباءة الدين ساترة، تمحو خطايا الماضي وتضيء خطوات المستقبل، وأهل شارع الشهيد طيبون، يؤمنون بالله، يحبون أنصاره من المتدينين، ينتهزون فرصة غياب الشيخ سيد، يتضرعون للحاج راجح، يطلبون منه تعيين حمادة إماما للمسجد، الحاج راجح رجل ناصح، يعلم أصل حمادة وفصله، يقدر قدراته فيوافق، باقتدار يصبح حمادة رنجو إماما لمسجد السيد.

يخرج نور من الشارع، يتوقف لوهلة وبأمل يتطلع لمنزل الحاج راجح أعلى المسجد، يتمنى في نفسه أن يصير والده قويا مهيبا كالحاج، يفكر في الحكايات الكثيرة التي يسمعها عن الرجل البادي ثراؤه والظاهر سلطانه، يفكر في كراهية الجدة للرجل، بغيرة طفولية يتمنى لو شيَّد له والده راضي منزلا كهذا، لا .. منزلا أعلى قليلا من منزل الحاج.

المنزل بالغ البهاء مرتفع مهيب، بوابته مفتوحة على شارع النيل الرئيسي، وواجهته المطلة الخارجية مغطاة برخام أبيض ناصع، مزينة بنقوش إسلامية وآيات قرآنية؛ كُتِبت بخط كوفي بديع بعرض المنزل، تنبثق من واجهته المطلة على شارع الشهيد مئذنة خضراء، سامقة، شيدت على الطراز الفاطمي.

يترك نور الشارع، تنتهي لحظات تأمله للمنزل، يتبع طريقه بشارع النيل، يعبره إلى الجهة الأخرى، يصعد إلى خارج الحي، بطريقه يمر على أحد مخازن الحاج راجح الكبيرة، يعبر محلات الخضار والفاكهة الكبيرة، والسوق مزدحم كالعادة بالباعة والمشترين يوم العطلة، يتعثر الفتى بأحد الباعة الجائلين ويتفادى آخر بخفَّة.

من جديد يعبر الشارع، يدخل إلى زاوية صغيرة، يقوم على إمامتها شيخ عجوز، يجلس وسط العجائز، لا يستمع إلى الخطبة المقتضبة، يفكر في المباراة المنتظرة عصرا، لا يدري ماذا يقال فوق منبر مسجد السيد، لا يفطن إلى ما يُدبَّر في الشارع، لا يدرك أن تلك الجمعة ليست كسائر الجمع، لا يعلم أن اليوم سيظل نقطة فاصلة في حياته وحياة أهل الشارع جميعا.

ينتهي نور من الصلاة، يسرع خطاه، يريد أن يصل إلى المنزل قبل أن تستيقظ أمه، فور أن يصل سيصعد إلى السطح ليدخن سيجارة، لا يوجد مكان أكثر أمانا من سطح منزلهم.

ما إن يصل الفتى إلى تخوم الشارع حتى يباغته صوت حمادة ربخو الزاعق عبر مكبر الصوت المعلق أعلى مئذنة، أمام باب المسجد يقف خلق كثيرون، لا يكترث الفتى، يحاول العبور، توقفه صرخات حمادة، يتطلع إلى الوجوه المكفهرة الواجمة، المسجد ممتلئ عن آخره بالداخل، الجميع ينصت إلى حمادة البادي على صوته الغضب، يرتفع الصوت أكثرو تزداد الدعوات واللعنات.

- ويل وعذاب وغضب إلهي سيطول المتقاعسين عن نصرة الحق.

تزداد الأعداد، تظهر النساء وصغارهن في الشرفات؛ يتطلعن للجموع المتزاحمة عند بوابة المسجد، ينخفض صوت حمادة شيئا فشيئا، يعلو صوت الجموع، تتوه الأصوات وتتداخل في شراسة واضحة.

يخرج حمادة متقدما الصفوف، وراية الغضب خفاقة، الشرر يتطاير من العيون واللعاب يسقط من الأفواه يتبع كلمات الغضب، يتجه الجميع صوب منزل نور، يتطلع الولد إلى شرفة المنزل في خوف، الشرفة مغلقة، الجدة تطل برأسها من فوق السطح، تلوّح لنور بيديها أن يعود، يهرب بعينيه، لا يريد الصعود، يركض باتجاه المنزل، يسد البوابة بجسده، يقترب الجمع أكثر، قلبه الصغير يخفق بشدة، يعتصره الخوف، ماذا لو حاولوا دخول المنزل؟

هو الآن رجل البيت – هكذا يشدد عليه أبوه في كل مرة يغادر– كيف سيحمي والدته والجدة؟ يشعر بالضعف، تخفض الجموع من سرعة المسيرة، عيون نور الفزعة تتابع المشهد، أخيرا يعبر الجمع المنزل، يتنفس نور الصعداء.

يتوقف الجمع أمام منزل أحمد الكبير، جميع أهل الشارع حاضرون، أحمد مازال مرتكنا إلى الجدار، جالسا فوق المصطبة

الصخرية، هائما في ملكوت الخالق، لا يدري ماذا يحيط به، لا يفطن ما دُبِّر له!

يحاصر أهل الشارع أحمد، يلتفون حوله كالقوس، يطوّقون المنزل من الجهتين، لا يعبأ نور بنداء جدته، يترك البوابة وينحشر وسط الجموع كسائر البشر تجتذبه رؤية الجموع المتزاحمة، تسرق إدراكه، وتصم أذنيه عن نداءات الجدة.

عند أول الشارع وقف الحاج راجح وولده زين أمام باب المسجد، يتابعان المشهد عن كثب، يلمح نور الحاج مصطفى السني يعبر وولده عبد الله الشارع دون أن يلتفتا لما يحدث، يسود الصمت المكان.

- بتركب أختك يا نجس؟

بغضب- امتزج بكراهية عاتية- يصرخ الشيخ حمادة موجها حديثه لأحمد الكبير، تقطع الصرخة الصمت، تحرق حقول السكينة بنفس أحمد الذي لا ينطق، فقط يتهته بمهمهمات لا يفهمها سوى حمادة.

- وكمان بتنكر يا كلب الزواني؛ أُمَّال اللي ف بطنها ده ابن مين؟

يمسك حمادة بحجر يلتقطه من جوار سور المدرسة، يقذف به أحمد المفزوع، يتبع الناس حمادة ويلتقطون الأحجار من الأرض ويقذفونه بها، يعلو صوت الخلق من جديد:

- الله أكبر .. الله أكبر

تنهار الأحجار على جسد أحمد الذي يسقط من فوق المصطبة، تشج رأسه، تسيل الدماء من سائر جسده، لا شيء يحتمي به، ولا شيء يردع أهل الشارع، يجاهد للوقوف على قدميه والهرب، يفشل ويسقط من جديد، لا مفر من إرادة حمادة.

تصرخ الجدة في الأعلى، تحاول عزة الخروج من المنزل، تمنعها نسوة تركن منازلهن وهبطن يؤازرن رجالهن، تثير الصيحاتُ حماسة نور وتزداد نبضات قلبه، عقل الغوغاء الجمعى يسرق عقله ويسوقه ويحثه على الصراخ.

بالفعل يمسك الصغير بحجر، يتبع أهل الشارع، يكاد يلقيه باتجاه أحمد المسَجَّى جسده فوق الأرض غارقا في الدماء، تلتقي عين الفتى بعيون أحمد، يستفيق الفتى، يعود إليه وعيه المسلوب، يلقي بالحجر على الأرض وتتجمد أوصاله.

- ماذا تفعل يا نور؟ هذا أحمد صديقك!

يتراجع الفتى للخلف ويهرب من عيون أحمد، ورغم الأحجار المنهالة على جسده المسكين، والدماء التي ينفثها جسده فقد استطاع تمييز وجه نور، للحظة التقت عيونهما.

تقتحم الجدة المشهد، تحمى أحمد بجسدها، وتصرخ في أهل الشارع:

- والله ما هو يا ظلمة، والله ما عمل حاجة.

يتوقف الناس خشية إصابة الحاجة عفيفة، يتراجع حمادة إلى الخلف، تسقط الحجارة من الأيادي، أخيرا تنفذ عزة من بين أيدي النسوة، تركض نحو أحمد، تخر راكعة إلى جواره، تصرخ، بيديها تهيل التراب فوق جسدها، تشق ثيابها فينكشف صدرها، تضرب بطنها بكلتا يديها.

- ربنا هينتقم منكم واحد واحد يا شهود الزور، كلكم عارفين مين الظالم إلى عمل كده في البت الغلبانة.

تظهر فاتن والدة نور في الشرفة، تلقى لوالدتها الشراشف، تترك الشرفة وتهم بالنزول إلى الشارع، عيون الناس سهام لا تعبأ بالدماء، لا يهمها الغبار، بشراهة يتطلع بعضهم لصدر عزة الظاهر، تقبض الجدة على الشراشف وتركض نحو عزة تسترها

وتحاول إيقاف دماء أحمد، من بعيد يقدم زين مسرعا، يأمر حمادة بإنهاء الموقف.

- خلاص يا حمادة، عيل مجنون وغلط، حسابه عند ربنا، كفاية كده.

ينسحب الناس تباعا، يهم زين بالعودة إلى أبيه، ترمقه فاتن الواقفة عند بوابة المنزل بنظرة غيظ غاضبة، لا يكترث، يطأطأ الرأس، يتابع طريقه مرافقا حمادة.

تنادي الجدة على نور، يستفيق الفتى المشتت، نظرة أحمد ما زالت تؤلمه، يقترب من الجدة، يحاول مساعدتها في حمل أحمد، يمسك يد الكبير، يحاول بكل ما أوتي من قوة رفعة إلى أعلى، يفتح أحمد عينة المغطاة بالدماء، يبصر نور، ينفض يد الفتى عنه بعزم غريب ومن ثم يسقط من جديد.

تهبط أم شيكو الممرضة ذات الألية الضخمة على عجل إلى حيث يضطجع أحمد الكبير، منذ لحظات أشار إليها الحاج راجح وأمرها بالنزول إلى الشارع لتضميد جراح أحمد فأطاعته، لا أحد يرفض للحاج أمراً؛ فخير الرجل سابق وطاعته واجبة.

تساعد أم شيكو الجدة وفاتن في حمل أحمد المغطى بالتراب والدم ويدلفون جميعا إلى داخل المنزل، لم يتبق في الشارع سوى نور المصدوم مما أقدم على فعله، يقتل الذَّنبُ الفتى، يهرول راكضا إلى خارج الشارع، يمر على الحاج راجح وولده زين والشيخ حمادة الواقفين عند باب الشارع، لا يكترث نور لعيون الحاج راجح التي تتابعه، يكمل طريقه ويتملكه شعور الخطيئة، تهبط الدموع من عينه ولا يرى شيئا إلا عيون أحمد.

يصل إلى شريط القطار فيشتد بكاؤه، يندم على فعلته ويمتلئ قلبه بالغضب والكراهية تجاه حمادة وراجح وزين وأهل الشارع، يمقت الفتى ضعف أحمد، يقسم على الانتقام ولو بعد حين، يوما ما سيدمي قلوبهم جميعا، يوما ما سيكفِّر عن فعلته، ثأر أحمد في رقبته إلى يوم الدين.

تمر الأيام مثقلة بحزن الجدة، انطوائية نور الذي تمكن الحزن من قلبه، صار منزويا بغرفته، يمتنع أحمد الكبير هو الآخر عن الخروج، يرفض رؤية نور، يلتفت بوجهه كلما دخل عليه الفتى الصغير.

كسرة النفس تقتل روح أحمد وتسمم بدنه فيموت فجأة بعد تلك الواقعة بثلاثة أشهر دون جلبة، كما عاش، يؤم الشيخ حمادة أهل

الشارع في صلاة الجنازة، يدعو بحرارة لأحمد الكبير بالرحمة، يتكفل الحاج راجح بمصاريف الخرجة.

تزداد انطوائية نور ووحدته وصمته، يعود أبوه راضي إلى المنزل في أجازته الاعتيادية، أحوال نور الصغير لا تسرُّ عدوا لا حبيبا، منذ وفاة أحمد وجسد نور يهزل، تطعمه الجدة غصبا، الصغير حزين، يمتنع عن الخروج، يشعر بعِظَم الجرم، فتحاول الجدة التخفيف عنه.

- الذنب مش ذنبك يا ابني، أنا اللي سكتّ من الأول.

الكلام لا يفيد، وصحة نور تتدهور يوما بعد يوم، جسده سليم والمشكلة نفسية، هكذا شخص الأطباء حالته، يقرر راضي الابتعاد بنور عن الشارع، سيصطحب الفتى للإقامة معه في دبي، لا يرفض الفتى ولا يقبل، بداخله ألم لا يهدأ، نار ملتهبة لم تخبُ بعد.

تضع عزة مولودها بذات الغرفة التي وضعت فيها فاتن نور، رضيعها سبحان المصور، جميل الطلة، حسن الهيئة، عيناه زرقاوان كأمه، العيال رزق من الله، ولا أحد يرد رزق الخالق، يُدخِل الصغير الفرحة أخيرا إلى المنزل، تحمله الجدة بين يديها، تكبِّر في أذنه، تهدهده، تسميه أحمد، تدعو أن ينال حظه في الدنيا، يحمل

نور الرضيع بين يديه، يبتسم له، يقبل وجنتيه، يتذكر أحمد الكبير فتدمع عيناه.

ينهى راضي إجراءات السفر، يحزم الفتى حقائبه، يستعد للرحيل عن الشارع.. "أعز الولد ولد الولد".. وعندما تدق ساعة الرحيل تبكى الجدة، تحتضن حفيدها، تكاد تعتصر جسده، فراق الصغير قاس، لولا ما حدث لما سمحت له أبدا بالرحيل، بحرقة تبكى فور أن يهبط الفتى الدرج خلف والده..

- ما تنساش تطمّن علينا يا نور.

بتلك الكلمات تودعه، يأكلها قلبها والولد لم يبرح الشارع بعد، الذي يشاهد الحاجة عفيفة تودع نور من الشرفة يعتقد أنها أم نور وليست جدته، رغم حزن فاتن الجمّ على رحيل صغيرها، إلا أنها كتمت ما بها من أحزان، لم تقف لتودعهم في الشرفة كما فعلت الجدة، غريب أمر تلك المرأة، فمنذ أن ولدت نور وهي تكتم ما بداخلها من مشاعر، في داخل أعماقها تحب بِكْرَها بجنون، تخشى عليه من الهواء، لكنها تفضل أن يبتعد عن الشارع وأهله، تؤمن كثيرا بحنان راضي على صغيرها.

قبل أن يهم نور بالمغادرة، يتجه إلى منزل عزة، ينقر الشباك بأنامله، تطل عزة حاملة مولودها، تناوله الصغير، يضمه إليه بحنو ثم يلقى عليها السلام، تقترب بوجهها من نور، تقبل خديه..

- أحمد مسامحك يا نور؛ ليلة ما مات سألني عليك..

ينسحب نور، يدلف إلى السيارة التي تحمله وأباه إلى خارج الشارع، كلمات عزة تنفذ إلى ذهن نور، لكنها لا تمحو نظرات أحمد الأخيرة، بركان الغضب ما زال ثائرا وإن أظهر خمولا ظاهريا خادعا، لنور في الشارع ثأر لن ينساه، سيعود ولو بعد حين.. لينتقم، لن ينسى أبدا ما حدث لصديقه أحمد، لن ينسى أبدا ما فعله الحاج راجح وولده زين ومن قبلهم حمادة وأهل الشارع جميعا.

3

شارع الشهيد لم يزل طويلا كالدهر، ممتدا كأفق لا ينتهي، مائلا كميزان العدل فى الدنيا، أكثر انحدارا، يربط بين شارع النيل الرئيسي الذي يشطر الحي لنصفين، وبين شارع الثورة العشوائي.

غادر الفتى نور الشارع مع أبيه بقلب مفطور وروح تائهة تتوق للثأر، تحمل بين طياتها كراهية خالصة لأهل الشارع؛ تاركا وراءه أمه فاتن وجدته الحاجة عفيفة وعزة سكر ورضعيها أحمد الصغير.

فى الشارع، ممارسة الجنس خارج الإطار الديني والاجتماعي جرم لا يغتفر، يعاقب عليها الناس قبل القانون ولا ينسونها مهما مرت السنوات، خاصة عندما يتعلق الأمر بامرأة ضعيفة كعزة، مكسورة الجناح، لا مال يحمي ولا عزوة تسند، ينسون أن عذراء فقيرة من بيت لحم اتُّهِمت هى الأخرى بالزنا، لكن الله أعزها ورفع قدرها فوق نساء العالمين، عندما بعث إليها برسول من عنده، نفخ فيها من روحه، لتحمل بين أحشائها نبيا لقوم نعتوا أمه بالزنا.

بعد واقعة رجم أحمد الكبير لم تتوانَ نساء الشارع عن التنكيل بعزة سكر، الموصومة بالعار، ففى المدينة زنا المرأة وشم؛ لا يمَّحي أبدا من ذاكرة الناس!

النساء المكتويات بنار الغيرة انتهزن الفرصة وأوصدن أبوابهن في وجه عزة المسكينة، أذعنَ سيرتها في كل منزل ومصطبة وسوق بالحي، وضيقن عليها أبواب الرزق، خشية أن تلوث بيوتهن بعارها..

أجبروا مستر سعيد مستأجر الشقة العلوية على الرحيل من المنزل، لم يكتفوا بذلك بل حثوا أطفالهم على السير وراء عزة في زفة كلما حاولت الخروج من منزلها، استباحوا إهانتها في الرواح والغدو، لولا وقوف الحاجة عفيفة إلى جوارها لماتت ورضيعها من الجوع الكافر الذي لا يرحم أحدا.

الحاجة عفيفة بنت أصول، ملئ قلبها بالعطف، تقسم معاش زوجها الراحل بينها وبين عزة بالعدل، لا تقبل أن تأخذ قرشا واحدا من راضي زوج ابنتها الوحيدة وابن أختها، تنتهز الفرص لتجود على أحمد الصغير وأمه، تؤمن ببراءة عزة، تدرك ضعف الرضيع وطهره.

تمر الشهور والسنوات تباعا، يشبُّ الرضيع، تتغير ملامحه، يحبو فوق أرض المنزل، يقف على قدميه ويغافل أمه، يخرج إلى الشارع ويبتسم للمارّين، لا أحد يعيره اهتماما، يتأفف منه الناس؛ فأبناء الحرام كلاب نجسة، أما أبناء الشارع فأطهار، بعض الناس ما زال يبصق كلما مر أمام منزل عزة.

- الواد اتأخر في الكلام يا عزة.

بقلق قالتها الحاجة عفيفة، حبها للصغير لا يقل أبدا عن حبها لنور، تخشى عليه، تصطحبه وأمه عزة إلى طبيب أطفال متخصص، يحدثهم عن إصابة الولد بحالة جزئية من حالات التخلف العقلي، لكن المزيد من الجهد والعلاج يحسّن حالته الذهنية، ترفض الجدة حديث الطبيب، تتركه وتذهب إلى آخر يكرر رأي سلفه.

لوهلة يساور الشك عقل الجدة، تدفعها المفاجأة لسؤال عزة للمرة الأولى:

- إنتى متأكدة يا عزة من ابو الواد؟

لا ترد عزة المكلومة بطفلها، الحظ يورث أيضا، حظ الولد عاسر كحظ خاله الراحل.

- أنا ربنا غضبان عليا يا خالتي! لو بإيدي كنت قتلته يوم ما اتولد ورحمته! بس قلبي ما طاوعنيش.

تستدرك الجدة خطأها، تخبر عزة أن أحمد حفيدها مثل نور، محاولة التخفيف عنها..

- ده انا آكلك بسناني لو إيدك اتمدت على الواد بشر.

من جديد تحفظ الجدة سر الصغير، صدرها محمل بالأسرار، سر إضافي لن يضر، لا ينبغي للولد أن يلقى حظ خاله أبدا!

الأيام شيمتها الفضح، الصغير يكبر، ويتعلم المشى، قدمه تحب الشارع، يحب جلوس المصطبة أمام المنزل كما الخال، يراه أهل الشارع فيسبحون الله، يمصمصون الشفاه، يتمتمون سرا وعلانية، لم نخطئ بحق عزة، لم نُجْرِ عليها ظلما كما ادَّعت الحاجة عفيفة، الولد يتهته مثل خاله، الولد أهبل كخاله، يبصق على المارين، الولد "ابن خالو"!

عندما تم أحمد الصغير ابن خالو كما يدعوه أهل الشارع الآن- الست سنوات، سلمته أمه عزة للأسطى لطفى الحداد، الرجل لم يدخر جهدا، منذ أن تلقفت يداه الولد وهو يحاول التعامل مع ذهنه المغلق، طوال عامين والرجل يستعمل كل

الوسائل الممكنة من التوجيه والنصح باللسان، إلى السباب حتى المطرقة ومكواة النار، لكن المحاولات كلها لم تنفع مع ابن خالو بعقله الغبي.

فقر عزة لا يرحم، والعمل فرض عين على المحتاج، لابد أن يعمل الولد رغم ذهنه الموصد وعقله المظلم!

ملئ السوق بمحلات الخضار والفاكهة، المحلات أمامها أقفاص تحتاج لمن يحملها، الولد عفي وضخم الجثة مثل خاله رحمه الله، لا بأس أن يعمل حمالا رغم صغر سنه، عمل الحمال لا يحتاج لعقل نيِّر، ولا ذهن متفتح، فقط يحتاج لجسد قوى يستعين بالله على الشقاء، ويرضى بالمقسوم.

في تلك الأثناء حدث أمر غريب مفاجئ، يحمل قدرا كبيرا من الغموض، اضطر معه نور للعودة إلى الشارع من جديد بعد غربة استمرت ثمانية أعوام، لم يعد نور خلالها إلى الشارع سوى أربع أجازات خاطفة، مما حمل الحاجة عفيفة على التصريح بأن الولد صار نسخة من أبيه راضي حتى في حبه للغربة.

حياة دبي المتسارعة سرقت عقل الفتى طوال ثمانية أعوام، نسي فيها الشارع والحى والمدينة بأسرها، دبي تتغير كل يوم تبدل جلدها، الشوارع تتمدد والبنايات تزداد ارتفاعا، الأضواء تمتد

وتعلو، تكاد تطغى على مصابيح السماء، لكأن العالم قرر الاجتماع بالإمارة الصغيرة، انغمس نور في المدينة بتشجيع من والده الذي ينفق على الفتى ببذخ.

لسنوات هام نور في شوارع المدينة المتزينة، ارتاد خانات الهنود الصغيرة قبل المولات الضخمة، السيارات الفارهة سرقت عيونه، اجتذبه الميناء البحري، وأشعل شغفه التخييم في الصحراء، رأى العالم بعيون جديدة، للسفر سبع فوائد قل عشرة بل مئة وأكثر.

يوما بعد يوم نسي ما حدث في الشارع، بعيون تبرق تابع عن كثب تطورات الإمارة الواعدة، ازداد اطلاع الفتى، صار أكثر انفتاحا على الناس، كوَّن صدقات مع أناس من جنسيات وأعراق وألوان مختلفة، جمعت الإنسانية بينهم، يحكمهم قانون الإمارة، لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالاجتهاد والكد في العمل.

لم يؤثِّر السفر ولا بعد المسافة على علاقة نور بالجدة، الهاتف يقرِّب البعيد، ونور البعيد يحادث جدته مرة في الأسبوع، تسأله عن طعامه وصحته، فيحكي لها عن دراسته وما يراه من جديد في المدينة، في نهاية كل محادثة يسألها القدوم إلى دبي.

حديث الفتى مع والدته قليل، لم ينس بعدُ فتورها تجاهه لسنوات، ما زال لا يفهم السر وراء جفائها غير المبرر في نظره،

الغربة قربته أكثر من والده، صار يشعر بالقوة إلى جانبه، يحس بالفخر عندما يزوره في العمل، بالاجتهاد والمثابرة تدرج الرجل إلى أن صار واحدا من مديري الشركة، التزامه وصرامته لم ينقصا شيئا من علاقته الحسنة بالمستخدمين في الشركة.

لا تأتي الرياح بما تشتهي السفن، بعد ثمان سنوات يأتيهم الخبر المشؤوم، رحلت فاتن إثر أزمة سكر! لا يصدق راضي الخبر فينهار باكيا بحرقة طفل فقد أمه، يحزن نور، مهما حدث فهي أمه التي انجبته، يُظهِر نور صلابة ورباطة الجأش بخلاف راضي المنهار، السنون أثقلت قلب الفتى، الغربة والذكريات الأليمة في الشارع جعلت قلبه قاسيا كالصخر، وأظهرت معدنه الحقيقي.

يعود نور وراضي إلى الشارع ليحضرا مراسم العزاء، يحضر الحاج راجح وولده زين والشيخ حمادة الذى صار الآن أبا معاذ العزاء في الشارع، يضطر نور لمصافحتهم، يشد الرجل العجوز على يد الفتى، لا يعيره زين اهتماما، يظهر حمادة تأثرا روتينيا، يعرض على راضي إلقاء كلمة قصيرة وفاصل من الدعاء على روح الراحلة، بلباقة يرفض راضي الحزين الأمر، ينفض العزاء، يرحل المعزون، لا يبقى في الصوان سوى راضي ونور.

تمر أيام العزاء، يقرر راضي العودة، لم يعد يطيق الشارع، لا يستطيع الغياب عن عمله، يعرض على الجدة الرحيل معهم إلى دبي، يتمنى نور موافقة الجدة، يتمنى لو تترك الشارع -الذى يكرهه وأهله- وتعود معهم إلى دبي.

عقول العجائز صلبة، لا يزحزحها حدث أو موقف، تأبى الجدة القوية ترك منزلها، تأبى ترك عزة وابنها أحمد، يتخذ نور قرارا شجاعا، لابد له أن يبقى ليرعى الجدة، الجامعات هنا ما زالت أفضل منها في دبي، يعود راضي إلى عمله حزينا، يبدو عليه الهرم فجأة، يتعجب نور من حزن أبيه الجم، يتساءل في نفسه، أيعقل أن الرجل الذي دأب على السفر منذ أعوام بعيدة وترك زوجته كان يحب أمه فاتن لتلك الدرجة!

رفض نور الاستماع لرغبة الجدة وتحقيق امنيتها بالتقدم لكلية الطب، التحق بكلية الصيدلة بإحدى الجامعات الخاصة بالعاصمة، بقدر المستطاع تجنب الاختلاط بأهل الشارع، ترفع عن مخاطبتهم، فقلبه لم يصف لهم، لن ينسى أبدا تسببهم في مقتل صديقة أحمد الكبير.

اقتصرت علاقته في الشارع على عزة سكر وأحمد ولدها، الشاب جواد سخى كالجدة، يبالغ في الإحسان إليهما ويحرص

على زيارتهما، حالة أحمد الذهنية تثير أفكاره وتدفعه للحيرة وتحثه على التساؤل:

ترى هل صدق أهل الشارع في ادعائهم؟ هل فعلها أحمد الكبير؟ لو لم يكن أحمد؟ فمن الفاعل إذن؟

- حتى لو فعلها الكبير فهذا لا يبرر أبدا بشاعة جرم أهل الشارع تجاهه!

يقولها في نفسه، وينتزع ذهنه من براثن الأفكار الخطرة، فقد انتهى ما حدث ولا ينبغي أن يفكر فيما مضى، لا ينبغي أن يشغل باله بأمور لن تنفعه، بأي حال هو لا يعير الشارع ولا أهله اهتماما، يخرج ويدخل كالغرباء، لا يلقي السلام على أحد، يضطر أحيانا للحديث على مضض مع عم عبد الواحد البقال؛ فالرجل لا يملُّ من استيقاف نور في كل مرة يراه فيها ويكرر عليه ذات السؤال، يطلب منه كتابة وصفة طبية للمفاصل التي تؤلمه.

- أنا آسف يا عم عبد الواحد أنا صيدلي مش دكتور كشف!

يكررها نور مرارا على مسامع الرجل؛ فيضحك، مؤكدا لنور أن الدكتور عماد الصيدلي هو من يعطيه الأدوية منذ زمن بعيد،

وبأنه لم يذهب يوما إلى مستشفى أو عيادة، يفطن نور إلى السر وراء عبد الواحد البقال صدفة، الرجل الأرمل يعز الجدة، يحاول أن يتخذها زوجة له.

لا يكترث نور بحمادة ربحو الذي صار واحدًا من كبار مشايخ الدعوة السلفية بالمحافظة، أضحى يكنى بأبي معاذ، لا يرى الحاج راجح ولا ولده زين إلا مرات قليلة، يتابع تضخم وضعهم المالي من خلال السيارات الرابضة بقطعة الأرض الفضاء إلى جوار مسجد السيد، رغم فخامة المنازل في دبى، وأبهة ساكنيها الا أن المنزل البهى ما زال يلمع في عينه، يعجب بغنى الحاج راجح الفاحش، يتعجب من إصراره وآله على الإقامة في الشارع، رغم ثرائه الفاحش كما يقولها عبد الله.

الصدفة وحدها كانت السبب في معرفة نور وعبد الله، الفتى المنطوي في الماضي يدرس الآن الطب بجامعة الأزهر، الشابان تقابلا ذات يوم بالقطار المتجه إلى العاصمة، تبادلا أطراف الحديث حول الدراسة بعدما تلاقت الأعين وتعرفت الوجوه على بعضها، أصر نور أن يدفع لعبد الله ثمن التذكرة، ومع الوقت صار لقاء القطار اعتياديا، ازداد الشابان قربا على الرغم من اختلاف

الأفكار، في البداية نشأت بينهما صداقة محدودة، لكنها لم تلبس أن ازدادت متانة وقوة.

عبد الله شاب محترم، منطوٍ إلى حد ما، على قدر كبير من الالتزام الديني -هكذا يقولها الناس- يمتلك وأسرته مكتبة الإيمان بأول الشارع، ورثها عن أبيه الحاج مصطفى السني، فهو أصولي، خفيف اللحية على الرغم من محاولاته الدؤوب لإطالتها، طيب القلب قصير البنطال ، انغلاقه لسنوات اكسبه شيئا من السذاجة، يسهل السيطرة علية وقيادته.. كان هذا انطباع نور عن صديقه الجديد.

عبد الله واحد من أهل المدينة، كما الاخرين فقد الأمل في الحاضر، ولم يجد رؤية واضحة للمستقبل، غاب عنه الطرح الجديد، فاندفع مضطرا نحو الماضي وذكر مآثره والتحسر على أيامه، صار يحلم بإعادة عجلة الزمن إلى الوراء، أملا في تحسن الأحوال.

دارس الطب لا يملُّ من الحديث عن دولة الخلافة، ذكر أمجادها، يؤمن بأن تطبيق الشريعة والأخذ بأحكامها هو السبيل الوحيد للتقدم وصلاح المجتمع وتطهير الحكومة الفاسدة، لا يدري أن عيون الحكومة الفاسدة لا تنام، آذانها تسمع الشاردة قبل

الواردة، قوات الأمن لم تمهل عبد الله، قامت باعتقاله على خلفية انضمامه لأحد التنظيمات غير الشرعية الهادفة لإثارة الشغب وتهديد أمن الدولة.

قضى عبد الله شهرين في السجن، ولم يسع نور لزيارته حينها واكتفى بالمرور الدوري على أهله والاطمئنان على والدته وأخته أسماء.

عبد الله أهوج قاد نفسه إلى التهلكة! كان هذا رأي نور الذي تربَّى في دبي كمغترب لا يهتم بأمور السياسة، لا يشغل باله بشؤون الحكم.

- نحن هنا مغتربون، لا ناقة لنا فيها ولا جمل، لا تتحدث عن السياسة ولا تشغل بالك بها مهما حدث، فقط أريدك أن تركز جهدك في النجاح والتفوق للرفعة من شأنك، وحينها سيركض السياسيون والحكام باتجاهك.

كانت تلك أول نصائح راضي لولده نور حالما وصل دبي، رغم مرور السنوات لم يزل نور يؤمن بنصيحة والده ويرى صحة وجهة نظرة.

نجا عبد الله من السجن بأعجوبة، نسب الفضل فيها للشيخ أبي معاذ، الرجل الصالح توسط لدى رجال الأمن لإخراجه كما يظن إلى الآن.

لم يصرح عبد الله لأحد بما حدث له في السجن، الأكيد أن الذي خرج من السجن شخص آخر غير عبد الله، حلق ذقنه واشترى ثيابا جديدة؛ شبيهة بالتي يرتديها نور، بالطبع مع اختلاف الماركات.

دأب على الغياب عن الجامعة وتمادى في إهمال دراسته، رسب للعام الثاني على التوالي، رأفت الجامعة بحاله ولم تفصله وحولت أوراقه لكلية اللغة العربية، الغريب أن عبد الله قبل الأمر بفتور، لم يبد عليه الاكتراث، نسي أحلامه القديمة وركز جهوده في الإيقاع بالفتيات وتدخين الحشيش وصار بودي باقتدار.

نور شاب واع يتطلع إلى المستقبل، يدرك ماذا يريد، تعلم في دبي أن الحياة ساحة قتال، الناجحون فيها فقط من ينتصرون، الضعفاء يتوارون، يأكلهم الفشل، تدفنهم الخيبات.

أنهى الشاب الواعي دراسته بتفوق ورفض عرض إدارة الجامعة بالتدريس، فتطلعاته أكبر من مقعد المعلم الجامعي، ولا حدود لطموحه، درس علم الإدارة ثم التحق بعدد من دورات التسويق

مدفوع بإمكاناته، تقدم للعمل بإحدى شركات الدواء، بالفعل حصل عليه، الشاب الأنيق يمتلك ما يكفى من مقومات ذهنية للتفوق على كثيرين.

لم تمر ثلاثة أعوام حتى صار مديرا للفرع الإقليمي للشركة، نور شاب وفي، يحرص على البقاء جوار جدته المريضة، يرفض الانتقال لمنصب أكبر في العاصمة، يرفض تلبية رغبة والده بالسفر إلى دبي للعمل بشركة أكبر براتب أضخم.

إقامة نور في المدينة رسخت علاقته بعبد الله، قويت صلته بأحمد الشهير بابن خالو، الولد كبر، زهد العمل في السوق كحمال، هو الآن يبيع المناديل لرواد المقاهى، نفسه عزيزة ولا يقبل إحسانا من أحد، يكسب رزقة بشرف كما علمته عزة، يمنح ما يكسبه من نقود قليلة لأمه، هي الأخرى تحصلت على عمل بأحد محلات الفراخ البعيدة عن الشارع، الفضل يعود لسمير فرخة، الرجل حاول إلحاقها بالعمل في دكانه طمعا في قربها، لكنه فوجئ برفض أهل الشارع الأمر، عزفوا عن المحل تأففا من عزة، لم ينسوا بعد ولم يغفروا للضعيف ذنبه.

بعد عدة أزمات صحية، لازمت الجدة الفراش بحكم السن فقامت عزة على رعايتها، تمكن المرض من الحاجة عفيفة، ذبل

وجهها النضر وكسته سمرة باهتة، انهزم جسدها، وسرح الوهن بأوصاله.

الحاجة عفيفة تحتضر، توشك على الرحيل، لكنها ترفض الموت لساعة، تستفيق كالأنبياء والصالحين، تتلو على نور رسالتها الأخيرة، تحكي له أسرارا حجبتها لسنوات خوفا على حفيدها.

الحب يدفعنا للخوف، والخوف وحده ما يدفعنا للكتمان ووأد الحقيقة بقلوبنا، الآن لم يعد هناك مفر؛ فقد نفذ الوقت، الولد الصغير كبر وأضحى جاهزا لاستقبال الأسرار، فقط ما ستتجرأ الحاجة على قوله، هي لن تبوح بكامل أسرارها، ستأخذ معها إلى القبر سرا واحدا آلمها لسنوات، تأمل أن يغفره لها الله، لا أحد يبوح بكل شيء.

ستحكى الجدة لنور حكاية مقتضبة تؤمن بصدقها، رأيت بعينها أجزاء كثيرة منها، ولملمت قوامها الباقي مما سمعته عن زوجها الراحل، خبرت دروبها من أقاويل الأصدقاء والجيران، لم يعد هناك وقت للكتمان، البوح صار فرضا لا اختيارا مهما كانت النتائج.

4

المعرفة عبء يثقل كاهل الإنسان ويدفعه للاختيار بين سكون يسمم البدن وحركة تهلك النفس، بين صمت يقتل الروح وحديث يفضي بها إلى هاوية لا مفر منها.

حكت الحاجة عفيفة لنور عدة حكايات عن الماضي سمتها الفضح، وهي مدركة أن تلابيب حكاياتها قد تؤثر على المستقبل، تحديدا مستقبل نور؛ الذي أصغى إلى حكايات جدته التي تحتضر بإمعان بغية إرضائها، لكن هدوءه لم يصمد للنهاية تماما كالحكاية التي لم تُروَ بكامل تفاصيلها للنهاية.

بدأت الحكاية عندما ترك إبراهيم السوهاجي قريته الصغيرة في الصعيد، هبط إلى المدينة واستوطن أحد العشش في الشارع محدود السكان فى ذلك الوقت.

الحي في الأصل كان ملكا لخواجة فاسد سكير –كما سمعت الجدة –يسكن وحده قصرا منيفا لم يزل باقيا إلى الآن، ولسنوات طويلة لم يقدر عليه أحد ولم يضع حدا لفساده أحد!

عمل السوهاجي في مجال البناء لسنوات لاقى فيهن الخير الكثير، فاشترى قطعة أرض صغيرة عند آخر سور المدرسة وبنى فوقها منزلا.

إبراهيم أصيل المنشأ حسن الخلق طيب الجيرة، يده تسبق لسانه في تقديم العون، والفلاحون القادمون إلى المدينة "غلابة" يؤمنون بأن الذي يعرفونه خير من الغريب، لا بأس أن يوكلوا أعمال البناء لجارهم المضياف الذي يتقن صنعته ولا يغالي في أجره.

الرجل صعيدي متصلب العقل ودماؤه حرة لا يرضي بالظلم ولا يخشى قول الحق، يناصر المظلوم حتى ينتهي الظلم ويرجع عن ظلمه ولا يقبل جور الخواجة على أهل الشارع الغلابة، يتصدى له ولا يخشى جبروته وسلطانه، فالعمر واحد والرب واحد.

حاول الخواجه التنيكل بالسوهاجي الذي كاد أن يدفع حياته ثمنا لموقفه النبيل لولا حدوث المعجزة وقيام الثورة التى على آثرها ترك الخواجة المغرور قصره والشارع والمدينة بأسرها ليحمل الناس السوهاجي على الأعناق ويهتفون باسمه محيين جرأته ووقفته منصِّبينه كبيرا للشارع.

المدينة رزقها واسع ويسع من الأحبة ألفا، والسوهاجي صعيدي يحب العزوة، فما بالك بالعزوة التي ستصون ولده المتخلف أحمد وبنته الصغيرة عزة إذا حدث له مكروه، يقرر السوهاجي استدعاء أصدقائه من الصعيد قاصدا مساعدتهم.

في يوم غائم احتجبت شمسه يهبط محمد العايق وراجح الصعيدي الشارع ويسكنا الطابق الأرضي بمنزل إبراهيم السوهاجي، سعيا في المدينة بحثا عن المال الوافر، البيع أسهل وأكثر ربحا من العمل مع إبراهيم في البناء، والمدينة عامرة وخيرها كثير، تمنح الغريب قبل القريب، مثلما ابتسم الحظ لإبراهيم، لعب نرد أصدقائه وجرت الأموال بأيديهما لكنهما لم يصونا النعمة ولم يحمدا الله رازقهما!

طغى الرجلان وتجبرا على خلق الله إفسادا في الشارع والحى فلم يصمت الريس إبراهيم وحاول بكل قوته صدهما، ونجح لوهلة في ردعهما لكن الظروف كسرته ومرض الرجل وهو في ريعان شبابه وكسرت شوكته ورقد في سريره لأيام حتى خطفه الموت.

بدهاء نصَّب العايق -جد عبد الله- نفسه كبيرا على الشارع وافتتح محلا لتجارة الخضروات، باع واشترى وجرى القرش بيده ولم

يكتف، راح بمساندة من راجح الثعبان ينصب على الخلق، يبيع لهم الوهم ويستولي على أراضيهم مقابل ثمن بخس.

طلق العايق زوجته الأولى رغم طيب أصلها وتزوج من فتاة صغيرة؛ ألهبت عقله قبل أن يمس شعرة من جسدها، وأغرقته بسلاح الدلال حتى لان لها مما سهل مهمتها في الاستيلاء على نصف أمواله، وتكفل الحشيش والأفيون بالقضاء على النصف الباقي، وفي النهاية قضى نحبه قتيلا برصاصة لم يعرف أحد من أطلقها إلى الآن.

بعد مقتل العايق انتقلت السيادة لراجح المترقب والأذكى بصمته وهدوئه، فتح عمله في السمسرة عقله وعلمه أصول الاحتيال، ولم لا وهو عديم الأصل لم يصن عشرته مع العايق، بخفة انقض على التجارة ووضع يده على الممتلكات المنهوبة ثم استولى على الأموال الحرام، ونسي الجميل القديم للسوهاجي وافترى بدناءةٍ على أبناء الراحل المساكين، وترك ابنه زين ينهش لحمهم، الفتى فاسدا كأبيه، يستغل سلطانه ويعربد في الشارع بلا خوف أو حساب، يغرر ببنات المنطقة، ومن ترفض الخضوع بالمال يخضعها بالقوة، ووصل به الحال بأن أقدم على هتك عرض عزة سكر الضعيفة وتسبب في حملها (كما تقسم المسكينة).

أما الحاج راجح فبدلا من مواراة خطيئة ولده وستر عزة المسكينة، اكترى الملعون حمادة ربحو على أحمد الكبير ليتهمه بالزور ويقذفه بالبهتان بأنه هو من هتك شرف عزة أخته وتسبب بحملها.

لم تتوقف حكايات الجدة عند ما قالته لنور وتمادت بعد ما شدَّدت على نسب الفتى الصغير لعائلة الحاج راجح وبراءة أحمد الكبير من تهمة الزنا بأخته عزة، فحكت تفاصيل أدق عن حكايتها لنور المصدوم من حديثها والمنهار واقعه بانهيار ماضيه.

هو الآن بين مطرقة ماض تعرى فجأة ونزع عن نفسه التَّعِبَة سترها وأذلها، وبين سندان مستقبل مشوه مُلِئت أركانه بالضباب!

مر شهران على وفاة الجدة ونور لم يزل منقطعا عن عمله يقضي النهار في نوم مضطرب، الكوابيس لا تنتهى، تقلق مضجعه وصحوه، تشتته الذكريات والصور، وأسرار الجدة تحاصره وتغُلُّ عنقه وتعزله عن الجميع، لم يعد يرد على اتصالات راضي ويغلق الهاتف بوجه حبيبته الخفية، لا يطيق وجود امرأة أخرى في حياته.

كل ليلة ينتظر قدوم بودي صديقه الوحيد والذي لا يدخر جهدا في مواساة نور ويحاول التفريج عنه، فيأتيه بقطع الحشيش

وزجاجات البيرة، وعندما يرتفع أذان الفجر يعود إلى منزله ويترك نور وحيدا أسيرا للوحدة والذكريات والألم.

منذ وفاة الجدة ونور يتحاشى ملاقاة أحد ولا يخرج من المنزل، تتقاذفه الأفكار وتتلاعب بعقله الذكريات، كلماتها الأخيرة جمر يأكل في نفسه وهو يحاول الهرب عبر الحشيش والخمر الذي يسكره ويغيب وعيه، يستفيق لوهلة ويستيقظ ليجد نفسه غارقا وسط دوامة من الحكايات والأحداث المعتمة، متاهة كبيرة لا سبيل للهرب منها أبدا.

- لماذا قررت البوح يا جدتي؟ لماذا لم تغادري في صمت كالجبناء؟ أكان لزاما عليك أن تتركي لي ميراثا من البوح وترحلي؟!

ظل ذلك السؤال الطويل يتردد بعقل نور حتى دق جرس الباب، قام من فوره ليفتح كالعادة فلم يجد أمامه سوى بودي صديقه، لا يتمهل حتى يدخل مبتسما على الفور، يفطن نور لحالة بودي صديقه العزيز الذي لا يستطيع الانتظار أبدا ودائما ما يحرص على تذوق الصنف قبل أن يأتي.

الإنسان غريب الطبع ينظر إلى الناس بملء العين، ينتقد أحوالهم ويتهمهم بالضعف وينظر إليهم بازدراء، بإيعاز من رغبة

داخلية تسعى لتأكيد الذات وإثبات التفوق، دون أن يفطن أنه قد يصير بنفس الموقع يوما ما، تماما كصديقنا عبد الله الصائم نهارا المصلي الذاكر ربَّه ليلا، هو الآن يقوم الليل في تدخين الحشيش تماما كأولئك الضعفاء الذين لطالما تندر على أحوالهم في الماضي.

مرت الساعة ونور معلق بين الواقع والحلم ينظر إلى تلك الهالة الصفراء المنثورة فوق سماء الصالة المنبثقة من نجفة عتيقة تمكن الوهن من مصابيحها فتخيم بشحيح ضيائها فوق الجدران تماما كما خيم الحشيش على ذهن نور الهائم بنظرة في الفراغ، الهارب من ضوضاء حكاية الجدة وآلام تفاصيلها إلى براح الخيال وراحته.

على حين غرة بدأ صوت الهدير يتسرب إلى أُذُنَي نور فلم ينتظر طويلا، بادر بودي المحدق بشاشة اللاب توب بالسؤال:

- هو الفيلم متصور على البحر والا إيه؟

جاهد بودي في رفع جفنيه المتثاقلين قبل أن ينظر إلى نور وعلامات الخدر والإرهاق بادية على وجهة ويعبر باستغراب:

- بحر إيه!

لم يعقب نور ظل ينظر لبودي الذي رسم ابتسامة ماكرة على شفتيه في الوقت الذي ازداد فيه صوت الهدير ارتفاعا وبدأ يصيبه بالتوتر.

- ما توطي صوت الزفت ده يا عم.

بمرونة تغاضي بودي عن اللهجة الآمرة عبر طلب نور المباشر بضحكة مبالغ فيها لم تلبث أن انكسرت أمام نظرات صديقه الحادة.

- هي اشتغلت والا إيه يا دوك؟ إنت مش واخد بالك من الهد فون والا إيه؟ يا أخي الواد سونج الديلر ده عيل ظالم، أنا متأكد إنه هيدخل الجنة طاير!

كلمات بودي ودعابته الفاترة خلخلت ذهن نور وأدخلت إلى عقله الشك فيما يسمع، لكن إحساس جسده بالبرد قطع سبيل الشكوك وشدد على صدق ما يسمع من أصوات.

نور قوي، لن يترك عقله فريسة للظنون وسيقوم ليبحث عن مصدر الصوت برغبة أكيدة في إنهاء ذلك المشهد الغريب، سيصغي إلى الصوت ويلتمس مصدره، تقع عينه على النافذة

المتوارية ويخطو إليها بانتظام رغم الخدر السارح بقدمية من أثر الحشيش.

في الطريق يفكر فيمن فتح النافذة، هو على يقين من أن النافذة مغلقة منذ وفاة الجدة، يزعجه الضوء القادم منها ويثير حفيظته صوت الناس في الشارع، ترى هل عاد أبوه من دبي إلى المنزل ولم يشأ أن يوقظه، جلس في الصالة قليلا شعر بضيق المكان وفتح النافذة..

- أين إدراكك يا نور؟ أنت الآن تهذي؟ بالتأكيد لا تدري فيما تفكر!

صوت الهدير لم يزل قويا بالغ الواقعية ويكاد يصم أُذُنَي نور، ينهى ضوضاء الأوهام بعقله التائه أخيرا، يصل للنافذة ويستند بقدميه على الأريكة ويمسك بالضلفتين فيشعر بالرياح تلطم وجهه، يتسرب القلق إلى قلبه وقطرات الرذاذ فوق جبينه تزيد من توتره، أخيرا يدفع الضلفتين بقوة، يخفق قلبه وتتجمد أوصاله... العالم يغرق في الخارج.

الحي ينهار يغرق تحت وطأة مياه غزيرة سوداء تهبط من شلالات سماوية، وتنهمر كالسيل تدك ما في الأرض من مبان

تجعل عاليها سافلها، ترهب الناس ببأسها وتحصد أرواحهم لتطهر الأرض من الجميع ثم تعيد لها سيرتها الأولى.

يغمر الخوف قلب نور، يلتفت باحثا عن بودي فلا يجد له أثرا لا يجد للشقة أو المنزل أثرا هو الآن متشبثا بنافذة خشبية تكاد أوصالها تتفسخ ويطفو فوق سطح أمواج كالجبال، تتقاذفه وتعلو به إلى أعالي السحب ومن ثم تغوص به إلى أدنى الأرض، وبين العلو والهبوط يرى الموت وسط الأمواج يحدق به ويضحك من ضعفه وقلة حيلته، يكاد يسلم بالنهاية، يقتنع بما قضاه من سنوات يستمع إلى صوت اليأس بداخله:

- لا سبيل للنجاة يا نور؛ أفلت النافذة من يدك واترك جسدك يلقى مصيره بهدوء!

حينما يظلم العالم في العيون وينقطع الأمل في القلب تبزغ الشمس تماما كما أشرقت في الآفق سفينة عملاقة ضخمة كالكون، عظيمة كالحياة، أشرعتها من نور يضوي وسط الظلام، تشق المياه بتبختر ملكي وتعبر الأمواج العاتية في هدوء كما تعبر الخيول الأصيلة الحواجز، تقترب من نور في ثبات، يبصرها فيعود له الأمل.

تستغرب عين نور تصميم السفينة المكون جسدها من مثلثين يجتمعان بذات القاعدة كجناحي طائر عملاق، أطرافها مدببة بالغة الحدة كمناقير الطيور الجوارح وسطحها هرمي متدرج تتدلى من حوافه سلالم متوازية تمتد إلى أسفل المياه كأنها أطراف بشرية تتقاطع فيما بينها عند نقاط أفقية كجماجم جاحظة العيون ولا تتوقف عن التحرك يمينا ويسارا.

فوق السطح المبلل بالماء المختلج بالدماء رجال قليلون يبدو عليهم الترف وجوههم مألوفة لنور، نعم هذا الكبير رمسيس الثاني يقف إلى جوار أحد الباباوات، والرجل القصير عن يمينه، ذو البدلة العسكرية والقبعة، نابليون يحادث أحد الخاخامات، السيد تشرشل وهتلر وستالين يدخنون بشراهة مع روزفلت.

يستغرب نور وجود الحاج راجح وولده زين برفقة حمادة ربحو ذي الجلباب والشال الأبيض بأحد أطراف السفينة! لا يكترث ويدقق النظر إلى اليسار قليلا عند طاولة البلياردو فيرى كسرى برفقة قيصر وبينهما شيخ معمم بالقرب منهم المليادير أوناسيس يضاحك الإسكندر المقدوني وإلى جوارهم يقف نفر من السحرة والكهنة يرتدون ثيابا غريبة لا تستر عوراتهم ويحملون العصي بأيديهم، كتلك التي يحملها رجل عظيم بهي الطلة يقف وحيدا

بأعلى السفينة كالربان ويعتمر تاجا تلمع لآلئه وفوق كتفه عباءة تضوي وتصنع من حوله هالة نور.

يشير الرجل بعصاه لنور أن أقبل ولا تخف، يومئ برأسه لقاطني السفينة فينظرون جميعا إلى نور فتعلو الابتسامة وجوهم، يصيحون ويلوحون له بأيديهم ويشجعون نور على السباحة للوصول إلى السفينة.

تنفرج سريرة نور ويشعر بالاطمئنان والقوة تدب في أوصاله، يخبط بقدميه الموج فيزيح بيديه الماء، لم يبق إلا القليل؛ فالراحة هناك في انتظاره وتشجعه نفسه.

- تقدم يا نور؛ ما أحلى النجاة مع هؤلاء العظماء!!

يستمع إلى صوت وراءه، يلتفت برأسه فيرى سفينة متهالكة تجاهد الموج يحيط بها الموت ويتبعها الفناء!

فوق السطح يرى نور الجدة عفيفة تمسك بالدفة تجاهد للإبقاء على اتجاه السفينة، وعلى الأطراف يرى أباه وأحمد الكبير وعبد الله ونفرا من الناس مختلفي الأعراق ملوني البشرة مجهدي الملامح يجدفون ويصارعون الموج والموت.

تجثو عزة سكر وأسماء أخت عبد الله فوق سطح السفينة عند المنتصف تماما، وبأيديهم قطع كثيرة من الخيش يجففون به سطح السفينة.

تنادى الجدة بوجد على نور:

- تعال يا ابني، إوعى تروح لهم يا نور.

تجتاح الحيرة عقل نور، يتخذ التردد طريقا لقلبه، الموت يناديه من الخلف بصور خيالات لأناس يحبهم، والحياة تناديه من الأمام! يصرخ بكل قوته:

- ارحمني يا إلهي .. حتى وسط الطوفان يتحتم على الاختيار!

الموت مع الأحباء أم الحياة مع العظماء؟

- اختر يا نور الآن أو ابق وحيدا والق موتا لا يليق بك.

هكذا يأتيه صوت الرجل البهي من أعلى السفينة، يحب نور الحياة لا يريد الموت، ينظر إلى جدته بعيون دامعة ويعلم في قراره نفسه أن موتهم محتم في كل الظروف!

- سامحيني يا جدتي سامحوني جميعا.

يتجه بكامل جسده نحو السفينة العظيمة ويصل إليها يصعد السلالم البشرية بقدميه ليعيش ويشارك عظماء التاريخ الحياة.

- نور.. نور.. انت يا ابنى..

يفتح نور عينه يتطلع لبودي القريب من جسده وراحة صديقه فوق كتفه تهز جسده والكلمات تتطاير من فمه.

- انت نمت يا عم والا إيه؟!

يطلع نور إلى بودي البادي عليه الفزع بعيون مرتابة ينظر حوله فيرى الشقة كما هي لا أثر لطوفان ولا سطح لسفينة.

يقوم من فوره يتجه إلى النافذة يفتحها، الشارع هادئ في الخارج والحى كما هو والليل يخيم على السماء المرصعة بالنجوم، والقمر يضيء الفضاء. بأي عبث كنت تحلم يا نور؟

يعود بنظره إلى الداخل فيجد بودي ملقى على الأرض يهتز جسده إثر نوبة الضحك الهستيرية التي شرع فيها منذ لحظات، ويفشل في الحديث لفشله في إيقاف نوبة الضحك.

- مش قلتلك دماغ أصلى يا معلم؟؟ أهي جابتك على وشك.

لا يكترث نور ببودي ويفكر في الحلم والسفينة ومن فيها، الحلم رسالة يعبر عن رغباتنا الحقيقة المخفية في اللاوعي كما قال فرويد.

صوت مكبر مسجد السيد يخترق صمت الشارع وتواشيح الفجر تنبعث من المكبر المعلق بأعلى نقطة في الشارع، يلملم بودي أشياءه ويهم بالرحيل تاركا نور العالق في حلمه ورغباته وعقله الذي أضاء، الآن عاد إليه النبض.

يرتفع صوت الهاتف دون أن ينظر يعرف نور المتصل، بإهمال يلقى الهاتف لا يحاول الرد ثم يدلف إلى الحمام يخلع ثيابه ويهبط أسفل المياه الباردة للاستفاقة ويقرر مراجعة ما روته الجدة بحياد متفرج. تلك المرة يشعر بقوة في نفسه تحضه على التركيز، يجب عليه مصارعة الموج يتحتم عليه الانتصار، يريد الوصول إلى السفينة والبداية لا تبتعد كثيرا عن الشارع، البداية لن تبتعد كثيرا عن الحاج راجح وولده زين، آن الأوان للأخذ بثأر أحمد الكبير.

يخرج نور من الحمام وطاقة الأمل تسري في جسده تنشط حواسه؛ فالانتقام العشوائي لن يفيده وغالبا ما يضر المنتقم وحده. يفكر في احتياجاته، لابد من وجود خطة ونجاحه في

مسعاه يتوقف على مدى إحكامه للخطة يفكر في الأدوات البدايات الأهداف. هكذا تعلم.

يدق جرس الباب يبدو أن بودي نسي شيئا قبل رحيله يفتح نور الباب وهو نصف عار، يبصرها، وجودها يفاجئه، لا تمهله وتدلف إلى الشقة في صمت، يغلق نور الباب بعد أن يلقي نظرة خاطفة على الدرج ويلتفت إليها ودون حديث ترفع عن وجهها النقاب وتلقي بنفسها بين ذراعيه وتشرع في البكاء.

5

صوت الموسيقى يرتفع، تقود الطبلة الإيقاع، وتختلج الآلات من خلفها، ويتصاعد اللحن بنسق منضبط تماما كجسد نسمة – زوجة زين الجديدة– المتمايل، بدلال مع الموسيقى.

المعلم زين أو سنقول الباشمهندس زين مضجعا فوق الأرض، إحدى يديه تمسك بمبسم النرجيلة، الأخرى تسرح بثقل في الفضاء تحاول ضبط إيقاع جسده المتمايل مع الموسيقى وعيناه مصوبة نحو نسمة؛ تخترق جسدها الفائر.

يثيره اهتزاز الأرداف، يهتاج ويقترب الجسد أكثر ويختال في ثقة وتمتد يد زين تضرب الردف الطري فيرتج، تعلو ضحكة نسمة وتبتعد في خفة لا تتوقف عن الرقص، تلتفت نحو زين ونظراتها اللعوب تستفزه تزيد من اشتعاله وتفجر مواطن شهوته.

– راحوا الحبايب بقالهم عام والتاني..

يملأ صوت عدوية أرجاء الغرفة بشجن وتلامس الكلمات شيئا بنفس زين، يحول نظره عن نسمة ويسرح في الماضي يتذكر وجه امرأة أحبها، طالما لوهلة لم تلبث أن انقضت برعونة أضاعها!

ابن الحاج راجح يشتهى النساء الشعبيات يؤمن بأن البلدي يؤكل ويُمضَغُ ويُمَصُّ أيضا، الرجل ذو العرق الصعيدي ما زال ماؤه رطبا، يركض رغم عبوره الخمسين، لم تشبع يداه من القبض على النهود الممتلئة وضرب الأرداف الطرية! دلال النساء يفتنه ومناغشتهن تثيره واضطراب الأجساد من تحته، وأناتهن وقت الجماع، رعشاتهن بلحظات الشبق، كل تلك الأشياء وأخرى تغريه، تدفعه للجنون، تحثه للانقضاض على فرائسه بنهم جائع لا يشبع أبدا.

منذ سنوات وزين يحرص على الزواج -بعقد عرفي غير مشهر- بعيدا عن أعين الحاج راجح وشارع الشهيد حفاظا على مشاعر سارة ابنته الوحيدة، من أجل هذا قام بشراء تلك الشقة جهزها على خير وجه حتى أضحت وكرا لملذاته، تأتى اليه النساء بالرضا والمال الذي يشتري كل شيء بالمدينة.

تزوج زين عدة مرات في إطار رسمي تحت رعاية الحاج راجح وموافقته، لكنه لم يسترح بأيٍ من تلك الزيجات، العيب فيهن أنهن بنات ذوات فاترات دمائهن باردة كالثلج، يحبطن رغبات زين، أجسادهن نحيفة كأعواد القصب الجافة، لا لحم يؤكل ولا سكر يحلي الفم.

منذ زواجه الأول وهو على يقين أن ذلك الصنف لا ينفعه، حينها وبعد سلسة من الفضائح انصاع زين لأوامر والده على مضض وقبل الزواج من نيللي كريمة محمد بيه عبد السميع وكيل وزارة الإسكان فى ذلك الوقت، الزيجة كانت جزءا أصيلا في صفقة مهمة للحاج، الصفقة نجحت لكن الزواج فشل ولم يستمر لأكثر من عام.

في الزواج بركة وإن فشل، وزواج زين الفاشل أثمر سارة زهرة العائلة ومليكة قلب الحاج ووريثة مملكته الوحيدة بعد أبيها زين، الذي فشل في إنجاب الولد رغم زيجاته الكثيرة طوال الأعوام الماضية!

الفتاة العشرينية ولدت وفى فمها ملعقة من ذهب، نشأت بكنف أمها في بيت أرستقراطي المناخ يمتلكه جدها المسؤول المهم بالحكومة سابقا، فتعلمت قواعد الإتيكيت والذوق، ثم انتقلت سارة بعد ذلك إلى كنف جدها الحاج راجح بشارع الشهيد، والصدق أن الرجل لم يقصر ولم يبخل عليها بشيء وأنفق على تعليمها ببذخ؛ اشترى لها سيارة فارهة وعين لها سائقا خاصا ووعدها برحلة سياحية لأوروبا لمدة عام فور أن تتخرج، لكن ولاد الحرام لم يتركوا لأولاد الحلال شيئا.

الحديث في السياسة موضة تلك الأيام، وسارة دماغها ناشفة ملئت بأفكار غريبة، الفتاة المدللة صارت تتحدث كالفقراء والمهمشين، ترفض استخدام سيارتها وتركب المواصلات العامة وتتبرع بثيابها للجمعيات الخيرية، تجالس عددا من الشباب العاطل على المقاهي وتدفع لهم الحساب وتناقشهم في القضايا الاجتماعية، تحلم بوطن عادل تذوب فيه الطبقية وترفض حياة الرفاهية التي لا تتوفر إلا لقلة ممن أنعم الله عليهم واختصهم دون غيرهم من البشر بنعمة الثراء.

يرن جرس الهاتف عدة مرات وينهض زين عن نسمة مفزوعا، نغمة الهاتف المميزة تدله على أن المتصل هو الحاج راجح، تقترب نسمة وعريها من زين تحاول اجتذابه إليها من جديد وتغرس نهديها العارمين بظهره وتحيطه بذراعيها، مسكينة صعد بها للسماء وتركها تهبط وحيدة!

يدفعها زين بخشونة عنه ويرمقها بغضب، زاعقا:

- إنتى بهيمة؟

يتردد لوهلة في الرد ليس من عادة الحاج الاتصال بوقت كهذا، يتمتم في نفسه:

- استر يا رب.

يضغط على الزر الأخضر يأتيه صوت الحاج من الطرف الآخر.

- إنت فين يا افندي؟

يتلعثم زين لا يستطيع إخباره بأنه في الوكر يضاجع نسمة، لا يتجرأ على الاعتراف بأنه عاد للزواج العرفى؟ لا يقوى على الكذب عليه..

- أنا ف مشوار يا حاج، هخلصه واطلع على المصنع.
- مشوار .. طيب سيب اللي ف إيدك يا افندي وتعال حالا.
- أوامرك .. أوامرك يا حاج.

يرتدى زين ثيابه على عجل يترك الشقة ونسمة المحبطة وحدها لا يفكر في الاعتذار عن معاملته الفظة، هي بالنسبة له مجرد جسد!

الحياة غريبة.. تجود على سارة بكل شيء وتبخل على نسمة حتى باسم لائق، فقد يرى البعض اسم نسمة جميلا بالغ الرهافة،

لكنه، ومع كامل الأسف، اسم اعتيادي شعبي متواضع، فعلى ما يبدو أن الأغنياء احتكروا كل شيء في الدنيا حتى الأسماء!

يهبط زين ويتجه نحو السيارة ويركب بالمقعد الخلفي كعادته منذ فترة، تحديدا منذ أن افتتح مصنع نواكل الصحي عند أطراف المدينة، يأمر السائق بالتوجه لمنزل العائلة ثم يجرى عدة مكالمات في الطريق يطمئن على أحوال العمل في المصنع ويراجع حركة المخازن، الأمور في الجمارك تسير بانتظام كما أعد لها والحركة في فروع البيع مستقرة رغم الارتفاع الأخير في الأسعار، الا أن ذلك لم يخفض من وتيرة المبيعات. كل شيء على ما يرام، لماذا إذن يتصل الحاج الآن ويحادثه بهذه اللهجة الآمرة؟

تصل السيارة إلى الشارع ويهبط زين وهو يتطلع إلى نور وابن خالو الواقفين في الشارع أمام المكتبة برفقة عدد من العمال، ينادى عبده حارس المنزل:

- العيال دول بيعملوا إيه هنا؟

يرد عبده:

- الدكتور نور ابن الأستاذ راضي شارك عبد الله وهيقلبوا المكتبة محل اتصالات.

يستغرب زين الأمر يرتاب ويفكر فيما يتطلع إليه الفتى، فمنذ أيام قام نور بزيارة المصنع، وعلى مضض قبل زين الزيارة جلس ينصت لحديث الفتى الغريب بهدوء لم يستمر، انفض حالما ألقى نور على مسامع زين سؤالا واحدا!

بعد كل تلك السنوات يذهب نور لزين لينبش في ماض طوته الأيام وابتلعه الدهر.. ماذا يظن الفتى؟ لماذا يعتقد في حديث جدته المحتضرة الصدق إلى تلك الدرجة؟

نور شاب ذكى نابه، كيف له أن يكون بكل تلك السذاجة؛ لماذا يعتقد أن باستطاعته حمل زين على الاعتراف بجرم طوته الأيام وابتلعه النسيان؟ حتى وإن اعترف لنور هل اعترافه بالفعل سيغير من الواقع شيئا؟

- ترى بماذا تفكر الآن يا نور؟

قالها زين في نفسه ولم يطل الوقوف صعد إلى المنزل بعد أن نادى على ابن خالو الواقف مع نور بازدراء ظاهر لغرض في نفسه لم يتهمل الفتى وركض نحو زين الذي حدثه باشمئزاز ثم أمره بتنظيف السيارة على غير عادة!

الحقيقة أن أوامر زين غير الاعتيادية لابن خالو ضرورية في نظر زين، أراد من خلالها أن يبعث لنور برساله هامة مفادها أن الرجل هو السيد الآمر في الشارع ولم ولن يكترث مطلقا لحديثه الفارغ!

ترك زين الشارع بمن فيه ثم راح يصعد درج المنزل بقدم أثقلها القلق، نبرة الحاج في الهاتف لا تبشر بأي خير، الرجل الثمانيني طريح الفراش والمريض بعدد لا نهائي من الأمراض؛ يرفض قبول الواقع ولا يتوقف عن التدخل في الأعمال، إلى الآن لا يثق بزين ولا يبدي له التقدير الكافي ويلتمس الفرص لتوبيخه والتحسر على عامر ابنه الشهيد.

زين مجتهد، وولعه بالنساء يأتي في المرحلة الثانية بعد الأموال، يقتنص الفرصة تلو الأخرى لتوسيع تجارة الحاج راجح والعمل على تطويرها، يفهم السوق جيدا ويدرك من خلال شبكة علاقاته الواسعة أولويات الزبون، تشييد مصنع النواكل كانت فكرته التي سعى لها حارب عددا من أباطرة الأموال في المدينة للحصول على الأراضي، ودفع مبالغ كبيرة لعدد من المسؤولين في الجهاز الحكومي للحصول على تصاريح البناء حتى تحقق له ما أراد وأضحى المسيطر على تجارة الصحي والنواكل في المدينة.

حصل زين على الأرض وفوقها شهادة إعفاء ضريبي لمدة خمس سنوات من الحكومة التي تحرص على دعم المستثمرين الشباب أمثال زين الكيس الفطن لكيفية سير الآمور في المدينة النابه لمواطن أكل الكتف والفخذ وسائر لحم وخيرات السوق.

متوجسا لما ينتظره، دخل زين الشقة وسأل الخادمة عن سارة فأخبرته بأنها خرجت منذ فترة، لم ينتظر ودخل إلى غرفة الحاج الراقد فوق سريره النحاسي ذي المرتبة الطبية مغمض العينين فى عناية الممرضة التي أحضرتها سارة من أحد المراكز المتخصصة للإشراف على تطبيب الحاج ورعايته.. تجلس فوق كرسي مريح بجانب السرير وإلى جوارها عدد من الأجهزة الطبية الموصلة بجسد الحاج الساكن.

يفكر زين لوهلة في الخروج فيباغته الحاج برفع جفنيه المتثاقلين، العجوز قطع على زين طريق الانسحاب بهدوء، يطلب الحاج من الممرضة ضبط جلسته فوق السرير، يهرول زين باتجاههم يمد يده قاصدا المساعدة، بحسم يتطلع إليه الرجل الثمانينى ويثنيه عن عزمه فيكفهر وجه زين ويردد في نفسه:

- ها قد بدأنا.

بذوق يطلب الحاج من الممرضة المغادرة، تبتسم الفتاة الجميلة ثم تخرج بعد أن تدون قراءات الأجهزة، عيون زين تزوغ عليها ولولا وجود الحاج لفكر في فتح أبواب الحوار معها، يخرج العجوز علبة سجائر من تحت وسادته ثم يشعل سيجارة ببطء ويسحب نفسا عميقا يتبعه بموجة من السعال تنتهي فور أن يشرب الرجل جرعة مياه قدمها له زين، قبلها الحاج باشمئزاز ظاهر وبدأ في الحديث:

- إنت ما اتعلمتش منى حاجه؟ هتفضل طول عمرك حمار!

لم يعلق زين على كلمات الحاج وانتظر في صمت أن ينتهي الرجل من فاصل التوبيخ.

- ما ترد عليا يا افندى ولا اتخرست؟

بهدوء يرد زين:

- اللى تشوفه يا والدي.
- اسمى الحاج يا بغل ..
- أوامرك يا حاج!
- نسوانجى وديلك نجس قلنا ماشي، رمرام وغاوي زبالة غطينا على مصايبك، لكن مغفل كمان! دى آخرة صبري؟

بصعوبة يكبح زين غضبه ويصبر على سيل الإهانات:

- إيه اللي حصل بس يا حاج؟ ما كل حاجه ماشية تمام بفضل الله.
- مش باقولك مغفل؟ عمال مصنعك ناويين يعلموا إضراب يا بيه وانت نايم على ودانك.

الرجل العجوز لا يثق في كفاءة زين ويخشى انهيار مملكته، يلقي الأعين والآذان في المصنع والمحلات لتنقل له كل كبيرة وصغيرة تدور.

- عمال إيه بس يا حاج؟ أنا يوم ما كلب منهم يتجرأ ويوقف الشغل أو يعطل مصالح الحاج راجح أنا مش بس هطرده، ده انا هخليه عبرة لأمثاله، يا حاج كل حاجة تحت السيطرة!
- مش باقولك مغفل، شوف يا افندي تطلع من هنا على المصنع وتؤمر بصرف علاوة منحة شهر للعمال، وتعلن ان الزيادة السنوية هتتضاعف مرتين عن السنة إلى فاتت.

كهولة الحاج راجح رجحت عقله وأكسبته خبرة حياتية فصار أكثر حنكة في التعامل مع المواقف، جعلته يفهم متطلبات البشر ورغباتهم وصار يعلم أن الناس تحب من يعطيهم أكثر كثيرا من

الذي يُسمعهم ولو شهدا، يحبون من يضحكهم ويضحك عليهم في الوقت الذي يكرهون من يحدثهم بواقعيه.

- منحة إيه وزيادة إيه بس يا حاج؟ ده خراب بيوت؛ أنا اجيب منين كل ده؟
- اسمع.. تعمل اللي قلتلك عليه ولما الأمور تهدا تشوف مين اللي بيلعب في دماغ عمالك وتتصرف معاه؛ فاهم؟ ..

السمسار القديم داهية بخلاف الابن حديث العهد بالإدارة، يؤمن بأن الضرب على اليد الفاسدة أصلح وأنفع في التقويم من الكلمات، الآذان تنسى الكلمات، أما الجسد لا ينسى الألم أبدا.

- فاهم يا حاج .. أي أوامر تانية؟
- آه يا بيه.. الأرض اللي انت عاوز تشتريها دي كمان تنساها وتشيل إيدك من الموضوع ده نهائي.
- ازاي يا حاج؟ ده انا ظبطت كل حاجه ودفعت دم قلبي للعرب هناك وظبطت الورق ومش ناقص الا ع التوقيع.
- ما هو لو كنت معلم مش بيه كنت عرفت ان جاسر بيه حاطط عينه عليها.

- يا حاج احنا كبار والدنيا كلها واقفة ورانا، يعنى جاسر ده ما بقاش يخوفنا.
- يا بنى افهم، انت مش عارف جاسر ده نسيب مين؟ ومن عيلة مين؟ الناس دي مش شوية ظباط ولا موظفين كحيانين بنأكلهم علشان نخلص مصالحنا، الناس دي صحاب البلد، سلسال ممدود من أيام الملك مربوط بنسب ودم لو فكرت تيجى على حد فيهم هيهدوا كل اللي بنيناه في سنين.
- اللي تشوفه يا حاج.. أي أوامر تانية.
- لا ما تنساش وانت خارج تبقى تطل على بنتك اللى ما بتشوفهاش غير في المواسم، اعتبرها مرة من النسوان الزبالة اللي داير تتجوزهم واحدة ورا التانية.

يخرج زين من غرفة الحاج وبداخله نار تغلى، يجتاحه غضب عارم يبغى تحطيم أثاث الشقة ويتمنى لو أن باستطاعته العودة إلى غرفة الحاج وكتم أنفاسه، يود لو يموت اليوم قبل الغد.

الحاج راجح لا يرضى أبدا عن أفعال زين، لا يوفيه حقه ويبخس إنجازاته ويصمم على الوقوف عائقا أمام طموحاته، لا يريد تقبل الواقع وما زال إلى الآن يعيش على أمجاد الماضي.

لا ينسى الحاج راجح أبدا بدايته المتواضعة ولم يزل يفكر في السوهاجي والعايق ويشعر بوجودهم، يحلم بتخطي إنجازاتهم بداخله، غيرة تجاه الرجلين لم تطفئ نارها الأيام ولم تنته برحيلهم.

الرجل ساند أصدقاءه ودافع عنهم ووقف إلى جانبهم يوم عاداهم الجميع تحمل جورهم عليه وصمت أمام تجبرهم، ظلمهم للناس سهل لهم الاستيلاء على أراضي الحي بذكاء وخفة، وضع قدمه في المركب الغارقة وأنقذ الأعمال من الضياع ولملم شقاء السنوات الذي كاد أن يهدر، ووقف عائقا أمام الطامعين في إرثهم، هو أولى من الغريب، هو أولى من أصحاب اللحى الذين كادوا يستولون على كل شيء.

ورغم الجاه والثراء فما زال يعيش وسط هواجس ومخاوف قديمة لم يعد لها قيمة الآن، لا يفهم أن الخريطة تغيرت، لا يتوقع أن يصرَّ زين على الفوز بالأرض حتى وإن جاء عزرائيل بنفسه وخيره بينها وبين الموت.

يهبط زين درج المنزل يخرج إلى الشارع يتجه نحو السيارة يتطلع لنور الجالس أمام المحل، تتلاقى الأعين، لا يفهم زين سر الثقة المفرطة بنظرات نور، يزداد ما في نفسه من غيظ تجاه نور ويريد أن ينفث عن غضبه فيتوقف أمام السيارة والصابون يغطي جسدها،

ابن خالو يربض إلى جوار أحد العجلات، ينظفها بهدوء ومن أمامه دلو من الماء لا ينتظر زين.

- إنت ما خلصتش يا حيوان؟

بقدمه يركل زين الدلو يصطدم بوجه ابن خالو يدفعه للسقوط أرضا، يبهت وجه الفتى، يصمت ويعرف قدره، لابد لأمثاله أن يضربوا، لابد لأمثاله أن يتلقوا الضربات في صمت!

يتابع نور المشهد عن كثب فلا يتدخل ولا يبدى اهتماما، يركض العمال تجاه "ابن خالو" يعتذرون للباشمهندس زين ويستسمحونه..

- الواد عبيط ما بيفهمش.

تقبل عزة سكر من بعيد بخطوات متلهفة، نفسها تعبه مرهقة، أصيب جسدها بالأمراض ففقد بريقه، ترهل المشدود وهزل الممتلىء، لم تعد عزة الآن تمت بأى صلة لتلك المرأة الطازجة فى الماضى.

هى أم كسائر الأمهات، قلبها معلق بجسد أحمد، تشعر بشكة الدبوس فى جسده قبل أن يتأوه، خرجت للشارع لتجد

المسكين يتلقى الضربة من زين الفاجر الذي لم يرحمها وأخاها فى الماضي، والآن يبالغ فى إهانة أحمد ابنها.

تصل عزة لمكان أحمد، تحتضنه بخوف خشية بطش زين، تعلم أن الظالم لا يتورع عن قتل ولدها الصغير كما قتل أخاها فى الماضى.

ينادي زين على السائق بغضب، يستقر داخل السيارة، ولكنه قبل أن يرحل، يتطلع إلى نور من جديد عبر الزجاج، يفكر في نفسه.

- هذا الفتى يدبر شيئا ما.

ينهض نور من مجلسه ويتجه صوب ابن خالو وعيناه تتطلع للسيارة وعقله يفكر في زين، هو الآخر يردد في نفسه:

- دورك قادم يا زين لم يحن الوقت بعد، فقط لم يحن.

6

الأرض عجيبة سمتها التغير التجدد امرأة تعشق الحياة تبدل ثوبها عند كل نهار ابتهاجا بالبقاء على الرغم من ضعفه وفنائه .. يبقى الإنسان هو الثابت الوحيد في الأرض.

منذ سنوات بعيدة اشترى محمد العايق متجرا عند أول شارع الشهيد، أعاد طلاءه وعلق فوق الباب يافطة (تجارة العايق وأولاده) وباع فيه الفاكهة والخضروات بالجملة، بعد حادثة مقتله الغريبة أُغلِق المحل لعدة سنوات، عاد بعدهم الحاج مصطفى السني من الخليج وقرر افتتاح المحل، ولأنه لا يفهم في الخضروات ولا يحب الفاكهة؛ فقد قرر تغيير النشاط، رفع اليافطة القديمة وأعاد طلاء المحل للمرة الثانية علق يافطة فوق الباب (مكتبة الإيمان) باع الأقلام والكراسات لتلاميذ المدرسة المجاورة، واشترى آلة طباعة وتصوير وصار يطبع الملازم والمذكرات للمدرسين الذين أحبوه لأمانته ووثقوا فيه لتدينه الظاهر، وعاملوه لأسعاره الرخيصة والتزامه بالمواعيد.

"من شابه أباه فما ظلم".. ها هو بودي يصير على نهج أبيه ويقبل عرض نور المغري بالشراكة رغم استغرابه الأمر! يعيد طلاء

المحل كما فعل والده من قبله يعلق يافطة فوق الباب (بودي فون) يبيع مستلزمات الهواتف النقالة.

بعد وفاة الحاج مصطفى السني استمع عبد الله لنصيحة الشيخ أبي معاذ، وكلف الشاب النيِّر مؤمن أحد تلاميذ الشيخ وإمام مسجد السيد بإدارة المكتبة لانشغاله حينها بدارسة الطب في العاصمة، والصدق أن مؤمن لم يقصر وتفانى في العمل رغم أجره الزهيد وسار على درب معلمه الشيخ أبي معاذ ومن قبله الحاج مصطفى السني، لكن الظاهر أن نية مؤمن لم تكن خالصة لوجه الله بل لغرض في قلبه لم يبلغه رغم كدِّه ومحاولاته الحثيثة لبلوغ مناه بالزواج من أسماء كريمة الحاج مصطفى وأخت عبد الله.

مؤمن شاب خجول، سلفي الهوى والفعال، طوال فترة عمله بالمكتبة لم يجرؤ على طلب ودِّ أسماء أو الاقتراب منها بالتلميح، لكن فطنته تدرك الإيماءات الإيجابية وتتفهم خجل الفتاة والسر وراء ترددها المتكرر على المكتبة.

الحياء تاج عفة الفتاة المسلمة الملتزمة بأوامر ربها، وأسماء مثال ونموذج في نظر مؤمن، حتى أمر النقاب الذي خلعته بعد وفاة أبيها ليست بالمسألة الكبيرة، حالما يتم المراد ويجمع بينهما بيت

واحد سيحضها على ارتدائه، لم يكن ينقص مؤمن إلا الحصول على دعم ومباركة أستاذه وشيخه أبي معاذ لكي يتم الأمر.

فرحة مؤمن بإيماءات أسماء الإيجابية لم تكتمل، تبخرت عندما علم بعزم شيخه أبي معاذ التقدم لخطبة الفتاة، المسكين لم ينتظر رد أسماء، وتقبل الأمر بمرارة، هو يعلم أن الشيخ أبا معاذ لا يرفض، وحتى لو حدثت المعجزة ورفضت أسماء، فلن يجرؤ أبدا على التقدم لخطبتها، فلا يصح أن يجور على فتاة أرادها الشيخ لنفسه، مثله مثل سائر أبناء جيله، لا يفلحون سوى في الهرب، لم يعلمهم أحد الصمود ولا المقاومة، ترك مؤمن العمل في المكتبة، وترك إمامة المسجد، ورحل عن الشارع دون سابق إنذار!

الشارع هادئ ساكن كعادته وقت العصر والنوافذ مواربة تهدهدها نسمات الهواء، والشمس تميل في الأفق وبصيص من الضوء يلقي بظلاله على الشارع الرطب الغارق في قيلولة لا يقطعها سوى صرخة لطفل يلهو.

فى الجهة المقابلة لمحل الدواجن يقف سمير فرخة يستند على عمود الإنارة الملاصق لسور المدرسة ينظر خلسة إلى داخل المحل، يرقب العاملة الريفية الجديدة وهي تنهى تنظيف المحل، يلتصق الثوب بالجسد الغض، يفصل أثر الماء المخروط، ويمنح سمير

الفرصة الكافية للتعرف على تفاصيل الجسد البكر، لا يجرؤ على التحرش بالفتاة ويكتفي بالمشاهدة عن بعد، صرخة من فم الفتاة الغشيمة كفيلة بفضحه وسط الشارع وهو لا يستطيع تحمل فضيحة جديدة.

يقف بودي أمام باب متجر الهواتف قلقا شاردا يدخن السيجارة تلو الأخرى، ينتظر أن يعود ابن خالو الذي أرسله منذ ساعة ليشتري قطعة حشيش، الفتى المختل فوق مستوى الشبهات، والشرطة تشدد على تجار الحشيش في هذه الأيام، يُرجِع بودي الأمر لتغييرات بسوق المخدرات؛ فأولو الأمر يتحكمون في السوق ويقطعون الطريق أمام أصناف بعينها لإفساح المجال أمام أصناف جديدة!

بين الفينة والأخرى يخرج بودي إلى الشارع يتطلع لمنزل الحاج راجح للحظات، يثبت عينه على نافذة غرفة سارة المطلة على الشارع، لا يلبث أن تنكسر عينه ويمشي خطوات إلى الشارع الكبير يلقى النظر بتمعن، يخشى أن يقبضوا على ابن خالو، لن يسامحه نور إذا حدث سوء للفتى، يؤمن بودي أن صديقه يحب الفتى المختل ويخشى عليه لدرجة تفوق حبه بمراحل، لا يهم، حتى

لو قبضت الشرطة على ابن خالو فبراءته ستكون أسهل كثيرا من سجن بودي.

يستغرب بودي أمر صديقه.. يفكر في تلك الرفاهية التي تسمح للمرء أن يترك عمله وقتما يشاء، لكن لماذا لا؟ في البداية اشترى لقب الصيدلي بأموال أبيه وعمل في كبرى الشركات بعلاقات أبيه ومن ثم تركه دون أكتراث لراتب أو وضع إجتماعى، رصيد الأب فى البنك وعلاقاته تقوى القلب وتسرع الخطى، سحب الأموال من الحساب البنكى العامر لن يضر، والشراكة فى محل صغير لن تقلل من الوضع الاجتماعى شيئا، مهما حدث سيبقى نور دكتور، ويبقى حساب أبيه البنكى سندا وظهرا.

يتمتم في نفسه ...لماذا يمتلك البعض كل هذا القدر من الرفاهية في الوقت الذي يحارب فيه الآخرون للحصول على لقمة العيش؟!

- رحمك الله يا أبى، أنت السبب في كل هذا..

كغالب البشر يشعر بودي بالظلم، يعلق بودي فشله على شماعة والده ويؤمن أن ضعفه وتقصيره تجاههم بخوفه المطالبة بحقهم من الحاج راجح هو السبب الرئيسي للفشل والخيبة التي أصابته.

منذ عرض عليه نور الشراكة وهو مرتاب، يدرك حجم التغيير الحادث لصديقه، منذ وفاة الجدة وهو يستغرب محاولات نور أن تتوطد علاقته بأهل الشارع، يعلم مقدار ما يبطنه من كراهية تجاههم ويفطن أن صديقه الناجح لن يدع عمله المرموق ويؤجل أحلامه من أجل تلك الترهات التي حكاها له!

أحيانا يرى بودي بعض المنطقية في حديث نور الغريب حول أبوة زين المزعومة لابن خالو رغم انطوائه وانعزاله عن الشارع وأهله في الماضي، إلا أنه يذكر جيدا أحمد الكبير ويبحر أكثر في ذاكرته ويدقق بوجه وجسد أحمد، هي ذاتها أعراض متلازمة داون التي قرأ عنها حينما كان طبيبا ويصطدم بعبارة لم ينسها رغم مرور السنوات على تركه دراسة الطب.

- ذكر المتوحد لا يمتلك القدرة على الإنجاب.

يرددها في نفسه ويفكر في حديث نور يتذكر ما حدث لأحمد بالشارع قديما، يومها كان عائدا ووالده من مسجد الأنصار، يذكر بوضوح الجلبة بالشارع، الشيخ أبو معاذ وهو يقود الجمع الملتف حول الكبير، قبضة أبيه الشديدة على يده ورفضه التوقف وعدم اكتراثه بما يحدث، يذكر جيدا أحمد الكبير الذي ترك مصطبته الصخرية واختفى من الشارع بعد ما حدث..

يفكر.. من الممكن أن يخطئ العلم، وبالرغم من أخطائه وذنوبه والحياة المنحلة التي يعيشها، فلم تزل أفكاره السلفية راسخة بداخله، والعشم أن قلب المؤمن لا يصدأ مهما ارتكب من ذنوب!

نعم قد يخطئ العلم، فالبشر لا يمتلكون من العلم إلا القليل حتى وإن صدق حديث نور بأن ابن خالو ولد حقيقي لزين، ترى ما الذي يمكن أن يفعله نور؟ هل سيجبر زين على الاعتراف بولد كهذا ؟حتى وإن وافق زين وهذا مستحيل، هل سيوافق الحاج راجح على الاعتراف بحفيد مختل كابن خالو؟ يبدو أن عقل نور خرب وصار يحلم بأشياء لا محل لها من الإعراب في أرض الواقع.

يدخل ابن خالو المتجر مع ابتسامة بلهاء تبدو على وجهه، يبادره بودي:

- كنت فين كل ده يا حمار؟

تنكسر ابتسامة ابن خالو، فقد كان ينتظر استقبالا غير ذلك، يرد:

- ملقتووووووش فاستنيته لغاية ما وصل.

يزداد غضب بودي ويخرج مسرعا من المحل، يقلب الشارع بعينه، يخشى أن يسوق غباء ابن خالو رجال الشرطة إلى المحل.

- هتودينى ف داهيه الله يخرب بيتك، فين الحاجة ياض؟

يخرج ابن خالو قطعة سلوفان ملفوف بداخلها الحشيش.

- هاااااااااااات الكاكولا الأول.

يقولها ابن خالو مصطنعا الدهاء، رغم خلل عقله والثقل الملازم للسانه، إلا أنه يتقن إغاظة بودي. يفتح بودي الدرج ليخرج جنيهين يمنحهما لابن خالو.

- خد يا عم وخلصنا، بس افتكر اوعى تقول لنور حاجه لاحسن انفخك.

يمسك ابن خالو الجنيهين ويلقى بقطعة الحشيش بوجه بودي ويركض إلى الخارج، لا يعبأ به بودي، فمتى انتهت حاجته منه يعود ليعامل الفتى ككم مهمل لا يكترث لوجوده، هو يرفض وجوده المفروض من قبل شريكه بالمحل، لكنه وطبقا لوضع الشراكة الجديد لا يستطيع مخالفة أوامر نور وطرد الفتى..

- لعنة الله عليك يا نور تدليلك للفتى أفسده!

كان نور قد عين ابن خالو في المحل بدوام جزئى كعامل نظافة، ووعد بودي بالتكفل بأجره من جيبة الخاص بعيدا عن أموال المحل، ذلك في الوقت الذي نصح فيه صديقه بالبحث عن فتاة لتعمل بالمحل بدوام كامل، فلم يستسغ بودي الأمر في البداية، وعقب ساخرا:

- إحنا كَلْنا إيه علشان نشرب عليه؟

أبدى بودي اعتراضا على رغبة نور كعادته منذ أن تشاركا، لم يزل يؤمن بأنه صاحب المحل ويخشى سيطرة صديقه على الأمر!

يمتلك نور قدرة عجيبة على الإقناع، التعليم الأجنبي ثمنه فيه، كالساحر يقنع بودي بالأمر ويخبره بقدرة الفتيات على جذب الزبائن ويشرح له الجانب النفسي بعملية التسويق والبيع، فيدفعه للموافقة بنفس راضية وإن أبدى اعتراضا ظاهريا.

وقع اختيار بودي على "هبة"، ومثلما قال نور.. كلما زادت جاذبية الفتاة واهتمامها بمظهرها كلما نجحت في مهمتها، نجاح هبة مبهر وسمعتها تسبقها، إما إمكانات جسدها فحدث ولا حرج رغم هيئتها الشعبية، إلا أنها تجيد إبراز ما لديها من محفزات!

لا تفقه هبة شيئا في علوم النفس ولا سيكولوجية الشعوب، ولا تدرى العلاقة الوثيقة التي تربط الانحطاط الثقافي للشعوب برغباتهم وميولهم الجنسية، وكذلك لا تفطن إلى أن الشعوب البدائية فكريا حيوانية الرغبات، تنزغ لكل ما هو ضخم وكبير، فالجاهل يهتم بالكم لا بالكيف، وهبة تؤمن بجسدها وتعلم أن الاهتمام بالمؤخرة حتما سيضعها في المقدمة، فتهتم بمؤخرتها وتفلح في اختيار أزيائها وخاصة ما ضاق من البناطيل، فيزيد تكوُّر المتكوِّر بدرجة تسرق العيون وتحثهم على الشراء بداية من تلاميذ المدرسة الصغار حتى آخر رجل في الشارع.

الفتاة ذات الردف العامر الناجحة في إثارة رغبات بودي الجنسية المكبوتة والتي تسمح له ببعض الاحتكاكات، تشتكي من ابن خالو وتهدد بودي بترك المحل إذا لم يتوقف الفتى المختل عن التحرش بها، بسماحة ترضى بكل الأيادي الطاهرة التي تعبث بجسدها، لكنها تتأفف من يد الفتى وترفضها وتصفها بالنجسة!

يلتقط بودي قطعة الحشيش من فوق سطح المكتب، فيجرى ريقه يريد اختبار القطعة رغم ثقته الكبيرة في يونج -ديلر الحشيش- إلا أنه لا يستطيع الانتظار للمساء، لا بأس من لف

سيجارة صغيرة للاختبار فقط، فالشارع هادئ الحركة ولن يحدث شيء إذا لف سيجارته الصغيرة.

يشرع بودي في فك "السلوفانة"، ويخرج مشرطا طبيا قديما من الدرج ويقتطع شريحة صغيرة ويقوم بتسخينها ثم يفركها بيده ويخلطها بالتبغ، بخفة يلف ورقة البفرة حول التبغ، ها هو انتهى السيجارة الآن جاهزة..

- ازيك يا دكتور عبده؟

تخترق الكلمات أذنيه فتقع السيجارة من يده، يرفع عينيه فيرى السيد الطويلة المخبر فيزداد توتره.

- أهلا.. عم السيد، المحل نور.

لا يكترث السيد بترحيب بودي المزيف، فهو يعلم جيدا أن أمثال بودي يكرهونه ويعاملونه بنفاق خوفا من بطشه، يتقدم إلى داخل المحل وينحني لأسفل ،يلتقط السيجارة الملفوفة، يمسك بها مبتسما، ثم تقع عينه على قطعة الحشيش بالدرج المفتوح فيمد يده ويلتقطها، بهدوء وخبرة يختبر ملمسها ثم يضعها في فمه يقطم نصفها بأسنانه، ويمسك القطعتين بيده.

- يسري بيه عايزك تعدي عليه بكرة الصبح، طبعا فاكر المكان.

يتمكن الخوف من بودي فترتعش يده، بتوتر يرد:

- آه طبعا عارفه.

يهم السيد بالخروج من المحل، فيتنفس بودي الصعداء، يلتفت إليه السيد من جديد ويلقي بقطعة الحشيش الأصغر نحو بودي.

- التحية دي مني علشان أول مرة، بس لو مسكت معاك حاجة تانية انت عارف بقى، اوعى تتأخر بكرة لاحسن نيجى ناخدك احنا.
- لا وعلى إيه، الطيب احسن.

يخرج السيد من المحل ويبتعد قليلا، لا يتمالك بودي أعصابه، يصيح:

- يا ابن ديك الكلب..

يندب بودي حظه ويلعن ابن خالو النحس، ويلعن الشارع والمحل والمدينة بأكملها!

في اليوم التالي يتجه لمقر أمن الدولة ويظل جالسا بغرفة صغيرة لعدة ساعات حتى يشعر باختناق، يذكر فترة اعتقاله فتهتاج

نفسه بالآلام ويتذكر قسوة التجربة، حياة السجن تفضح النفوس وتعريها، تكسرها وتظهر ضعفها الداخلي للعلن!

يؤمن عبد الله بفضل الشيخ أبي معاذ عليه؛ فلولاه لظل في المعتقل إلى الآن، الرجل الأصيل لم ينس كرم الحاج مصطفى السني معه، فدافع عن ولده بضراوة واستغل علاقاته كأحد مسؤولي الدعوة السلفية بالمحافظة واتصل بكل معارفه، لم يكلّ أو يهدأ حتى نجح في إنقاذ عبد الله من ذلك المصير المجهول الذي كان ينتظره.

رغم مرور عدة سنوات لم يزل يعتب على أخته أسماء ويلقى عليها باللوم، فهي السبب في انهيار علاقته بالشيخ بإصرارها على رفض الزواج منه، وبالأخير تعطل سوقها وبارت، رفضت بركة الرجل فحلت عليها لعنته فلم يطرق بابهم عريس واحد ليخطبها.

لا يعلم عبد الله شيئا عن زيارة أسماء للحاج راجح، لن يصدق أبدا أن أخته الصغيرة ذهبت إلى الحاج راجح وطلبت منه التدخل لإنقاذ أخيها، لن يفهم أن أمر خروجه من المعتقل أكبر بكثير من قدرة الشيخ أبي معاذ.

يفتح السيد الطويلة باب الغرفة ويصطحب عبد الله لمكتب يسرى بيه الذى لا يكترث لوجوده ويظل يقلب الأوراق فوق

مكتبه، أخيرا يشير إليه بالجلوس ومن ثم يبدأ في الحديث عن أحواله التي لا تسر وعقله الذي لم يتعظ ولم يتعلم الدرس بعد!

حاول بودي التنصل من الأمر بحديثه حول حياته الجديدة واستشهد بالسيد الطويلة الذي رأى معه قطعة حشيش، أقسم ليسرى بيه أنه لم يعد على علاقة بأي من الجماعات الدينية حتى أنه لم يدخل مسجدا منذ فترة طويلة.

أبدى يسري بيه امتعاضه من حديث بودي، ولم يفسح له المجال ليتابع، فبدأ في توبيخه:

- غلط يا عبد الله انت ممكن تدخل السجن بسبب الحشيش ده والا علشان السيد سابك امبارح؟ وبعدين هو حد قالك ما تصليش؟ إنت مش مسلم والا إيه ؟ وبعدين ده انت باب المحل ف وش الجامع.. إيه يا أخي ما بقتش بتخاف ربنا؟!

لم يجد بودي ما يرد به على حديث يسرى بيه، هو لم يعد يفهم ماذا يريد الرجل منه على وجه التحديد!

يأمر يسرى بيه بودي بالانصراف، لكنه يوقفه لوهلة قبل الرحيل يستفسر منه عن طريقة إنشاء حساب على الفيسبوك،

فيدعى بودي جهله بالأمر، يخرج من المكتب ويرحل عن المبنى المقيت بأكمله. يفكر في سؤال يسري بيه الأخير ويدرك أنهم على علم بحسابه ذي الاسم المستعار، فيردد في نفسه..

- ولاد الزواني ما بتفوتش منهم هفوة.

يخرج الهاتف من جيبه ويلتفت حوله وهو يخشى أن يسمعه أحد، يضغط على زر الاتصال بتوتر امتزج بلهفة كبيرة، يأتيه صوت سارة حفيدة الحاج راجح:

- إنت بخير؟

بهدوء مصطنع يخبرها بودي بأن كل شيء على ما يرام ولا يسهب في الحديث، فقد بات يشعر بالخطر، ومن الممكن أن يكون هاتفه مراقبا، ينهى المحادثة على عجل ويعلم أنها تنتظره في أحد المقاهي، يتجه صوبها وهو يفكر فيما سيقوله بعناية.

علاقة بودي وسارة بدأت منذ عدة أشهر، حدث الأمر عندما ساقت الفتاةَ قدماها على غير عادة إلى المحل لتشتري قلما، وبلطف طلبت منه أن يحضر لها بعض المستلزمات الورقية، وبهدوء تكررت زيارات الفتاة للمكتبة شيئا فشيئا حتى امتد سيل الحديث.

سارة بنت زين الرأسمالي الكبير المؤمنة بمبادئ اليسار تعلم بواقعة اعتقال بودي في إثر نشاطه السياسي وتريد التعرف أكثر على بودي، تعامله بودٍّ زائد وتتبادل معه أرقام الهواتف وتضيف حسابه – ذا الاسم المستعار- على الفيسبوك وتدعى إيمانها بمبادئ اليسار وتعجب بتجربته الإسلامية، فالمشاعر تعبر الأيدولوجيات وحداثة تجربتها لا تؤهلها لفهم طبيعة الاختلاف الجذري بين الفصيلين!

تدعو سارة بودي لإحدى الندوات، يرفض بودي دعوتها بداعي خشيته من تعريضها وأصدقائها للخطر رغم مشواره النضالي القصير واعتزاله المبكر للنشاط السياسي لإصابته بكسرة النفس، يتقن الفتى تمثيل دور المناضل ولا تدري الفتاة أن بودي تقاعد منذ زمن!

لا تعلم أن بودي يكره أباها ولا تفهم أن صديقها المناضل المتقاعد يحقد على عائلتها ويتهم جدها الحاج راجح بقتل جده محمد العايق وسرقة ميراثهم.

الحكاية -كما روتها أم عبد الله- بدأت عندما استدعى محمد العايق صديقة راجح من الصعيد ليكون نصيرا له، إيماناً بأن الصديق أولى بالمعروف، في البداية استخدمه في العمل وسانده

وعرفه على دروب المدينة ووقف إلى جواره بكل ما يملك، شاركه في التجارة ورفعه من الحضيض إلى مصاف الملاك، لكن قليل الأصل لا يشكر ولا يصون المعروف .

كبرت تجارة الرجلين وتضخمت الأرباح واستقر وضعهما المالي حتى اتسعت شبكه علاقاتهما في المدينة. لا يشبع راجح وينظر لما بيد العايق، يريد أن يستأثر بالتجارة لنفسه، يريد أن يكبر سريعا، يريد أن يكبر وحيدا، قبل أن يشعر العايق بشيء ينفذ راجح مخططه ويتحالف مع الشيطان ويكري قاتلا لينهى حياة صديق عمره.

ينتهز احتفال العايق بزيجته الجديدة — الثالثة تحديدا- ويصر على إقامة سرادق للاحتفال، يقف وسط الجموع ويقابل المدعوين ويوزع الشربات على الحبايب، ومن خلف الستار يتحرك القاتل حتى يتحين الفرصة، يطلق القاتل رصاصة تخترق قلب العريس الغافل، يصرخ راجح ويندب صديق عمره ويتوعد بالأخذ بالثأر من القتلة، لا ينتظر انتهاء العزاء حتى يهبط على المحلات ويضع يده على كامل التجارة ثم يلقي الفتات لوالد عبد الله الوريث الوحيد للعايق.

رغم إيمان بودي الكامل بالحكاية إلا أنه لم يستطع صد سارة، فشل في قطع علاقته بها، في البداية فكر في استغلالها واتخاذها طريقا للانتقام من والدها وجدها، لكنه تراجع لقلة ثقته في نفسه وقدراته، وبعد فترة وجيزة وقع صاحبنا بودي في المحظور.

الجاذبية تكمن في الاختلاف وسارة جمالها مختلف!

سحرت سارة بودي بسمرة خافتة تخمَّرت تحت أشعة الشمس ورثتها عن أبيها زين وملامح دقيقة لا ريبة فيها ورثتها عن أمها نيللي، عيونها العسلية تفيض ببراءة آسرة وابتسامتها بسيطة طفولية تخبو خجلا وراء جدائل شعرها الفحمي.

أكبر بودي جمال سارة في نفسه وشعر بطهرها عادت إليه روحه التي تاهت منذ سنوات ورأى في عيونها عبد الله الذي يحبه، ابتسامتها رققت قلبه الأجدب، مشاعر الحب داخله هزمت رغبة الانتقام. وتمرد قلبه، ترنح وغرق في حب سارة.. بصدق وبعذرية سار في ركبها كالمجاذيب ونسى جدة القتيل وجدها القاتل.

هو يعلم أنها تعشق فيه صورة المناضل، ويجاهد بكل ما أوتى من قوة للحفاظ على الصورة التي رسمتها له سارة ولا يفكر في المستقبل، مشاعر الحب تغمره ويحلم بإيقاف الزمن، يحلم بالرحيل مع سارة عن الشارع والمدينة والبلد بأسرها، يخاف من زين ولا

يدري أنه سيستيقظ على كابوس، لا يعلم أن رغبة الانتقام التي خبت بنفسه تشتعل بنفس نور، لا يتوقع أبدا أن حبيبته سارة هي الهدف الأول على لائحة نور للانتقام.

7

فيما عدا سارة، تحلم فتيات الشارع جميعا بالزواج وتظل الطرحة والفستان الأبيض هما الأمل الذي ينتظره الجميع، يضبطن حياتهن على يوم الزفاف ويتنافسن فيما بينهن ويبرعن في إظهار جمالهن، وكثيرا ما يظهرن طبيعة تخالف ما هن عليه فعلا من أجل الوصول لذلك اليوم.

يرتفع صوت أذان الفجر ويخترق صمت الشارع، ينبه أسماء المستيقظة منذ عدة ساعات، بسرعة تنتهي من ارتداء عباءتها السوداء وتعتمر خمارها الأسود وتضبط النقاب التي عادت لارتدائه منذ عدة أشهر!

كان الحدث غريبا، وأسماء التي كافحت من أجل خلع النقاب من سنوات وأصرت على موقفها رغم رفض أمها وأخيها عبد الله الأمر، عادت لارتداء النقاب برغبة دون قسر أو إجبار من أحد.

فتحت باب غرفتها برفق وخطت بهدوء فوق الأرض ومرت على غرفة عبد الله العائد لتوه من الخارج، ها هو ملقى على السرير كالعادة، نام دون أن يغير ثيابه منذ وفاة الوالد، وأحواله لا تسرُّ عدوا ولا حبيبا!

عبد الله الحاني الخجول طيب القلب تغير منذ وفاة الوالد وصار قاسيا فظا غليظ القلب، وقد أثرت تجربة اعتقاله وفصله من كلية الطب على ذهنه وأضحى غريبا يعامل أسماء وأمه بجفاء غير مبرر، وكأنما يراهما السبب في كل ما حدث له ويحاول إجبار أسماء على الزواج من أبي معاذ وتصر الفتاة على الرفض فيضربها دون رحمة.

أدمن تعاطي المخدرات وأساء إدارة المكتبة ورفض خلع أسماء للنقاب، يعنفها بشدة كعادتها وهي لا تستسلم، إرادتها صلدة لا تنكسر تصر على موقفها للنهاية ولم تعد تبالي برأي أخيها القاسي.

اعتقال وفصل ومخدرات وضرب ولا أحد يدري ما القادم يا عبد الله.

تدلف أسماء إلى غرفة أمها المسكينة التي خاب أملها في بكرها، فمُلِئت حسرة وحزنا يورث المرض. تضبط أسماء الفراش فتفيق الوالدة من نومها، تفتح عينيها بحنان وتمسك أسماء شعر أمها تنسى لوهلة ما فعلته بها قديما، تسامحها في سرها وتسقيها جرعة ماء، تنهض الأم متألمة لتصلي الفجر، تستأذنها أسماء

للحاق بالصلاة في مسجد السيد فلا تمانع، فصلاة المسجد خير وبركة ولعل النصيب ينتظر هناك.

منذ عدة أشهر وأسماء تداوم على صلاة الفجر بالمسجد، تجلس في صدر مقرأة للقرآن مع بضع نسوة من الشارع وأخريات من الأخوات المحافظات من الشوارع المحيطة، عندما عرضت أسماء الأمر على والدتها لم تمانع ورحبت بشدة رغم اقتناعها بأن صلاة المرأة بمنزلها أقوم وأفضل سبيلا، لكنها تعلم أن النسوة يذهبن للمسجد للصلاة وأشياء أخرى أهمها اصطياد العرائس الملتزمات حسنات الطلة لأبنائهن. مسكينة أسماء بلغت الخامسة والعشرين ولم تتزوج بعد!

تخرج أسماء من المنزل وتخطو عدة خطوات بالشارع الخالي منذ لحظات، رفع المؤذن إقامة الصلاة، ترفع عينيها إلى أعلى تفتش شرفات المنازل الخاوية، تسير باتجاه المسجد بخطى مسرعة، فتعبره دون أن تدخل، تنفذ إلى خارج الشارع وتسير عدة خطوات بالشارع الكبير، تلتفت وتتأكد أن لا أحد يتبعها، تعود أدراجها من جديد بخطى متوترة، تسير في الشارع، تعبر المسجد، تمر على محل الدجاج ودكان عم عبد الواحد المغلق فتعبرهما بتردد ثم تدلف لمنزل نور.

بسرعة تصعد الدرج، لم يزل الخوف يعتريها في كل مرة تصعد فيها منزل نور، تخشى أن يفتضح أمرها، تصل إلى باب الشقة تضغط على جرس الباب بتوتر يفتح لها نور تندفع إلى الداخل، يهدئ من روعها ثم تخلع نعليها وتتقدم عدة خطوات إلى الداخل قبل أن تخلع نقابها، تقع عينها على ابن خالو الجالس بأريحية في صالة الشقة يكاد يغشى عليها، تتصبب عرقا وتتحاشى النظر لابن خالو خشية أن يتعرف عليها.

- يا فضيحتك يا أسماء.

تقولها همسا وتلتف باتجاه نور الذي لا يكترث لتوترها، فتهم بالرحيل، يمسك نور يدها بودٍّ ثم يدلف بها للداخل، تريد الانفجار بوجهه فلا تجرؤ، وقبل أن تنبس بكلمة يطلب منها الجلوس للحظات حالما يرحل الفتى.

أسماء فتاة عنيدة تحلم بطوق نجاة ينجدها من المنزل، تسعى نحو مبتغاها برغبة قوية لكن متأنية ووجهها الطفولي يخفى إرادة صلدة لا تتزحزح وبداخل جسدها الملفوف نفس قوية لا تنكسر.

في طفولتها مرت بتجربة ختان بالغة القسوة أورثتها اضطرابا في المشاعر وزرعت بداخلها بذور كراهية أمها حتى تمنت لها الموت، لعنت أنوثتها وحلمت بالهرب وتمنت لو بإمكانها الفكاك

من أسر عالمها المحدود، سرحت في خيالها لشهور وسنوات، ولكن تنفيذ الأحلام يحتاج لجرأة لم تمتلكها حينها، في النهاية هي أنثى لم تتجرأ أبدا على الفعل.

لم تعش أسماء طفولتها كسائر الفتيات، مثلما أمسك أبوها بيد عبد الله، أمسكت والدتها بيديها وشدت عليها وحرمتها ممارسة مرح الطفولة، فحرمت عليها اللعب في الشارع مع الفتيات، وعندما تفتحت ازاهير جسدها أجبرتها على ارتداء النقاب حين اشترت لها الفضفاض من الثياب وراقبت خطواتها ولجمت الأحلام بداخلها فلم تترك لها مساحة للضوء ولا مساحة للتنفس..

- إنتى بنت وفيكى الطمع.

لطالما رددت الوالدة تلك الجملة على مسامع أسماء، أي لعنة تلك التي تصيب الفتيات؟ أي طمع هذا؟ لم يكن لأسماء الحق في العيش كباقي الفتيات، لم يكن لأسماء ولمثيلاتها من الفتيات الحق في العيش كباقي البشر!

بتزمتها وشدتها غير المبررة مع الفتاة الصغيرة غرست الوالدة بها بذور الخوف من الجميع ونفرتها من الرجال الطامعين في جسدها.

بعد وفاة الوالد انحدر حال عبد الله والتمست أسماء بعض النور وتركت ظلمة المنزل وخرجت لتبحث عن النور بنفس مشتاقة، أذلها الكبت فتحلم بالهرب، خلعت الفتاة نقابها فأسرت قلب مؤمن الإمام السابق لمسجد السيد، خجل الإمام لم يدار حبه، فالحب شيمته الفضح، وأسماء لا ينقصها سلفي آخر، فقط أحبت نظرة الإعجاب بعينه وأحبت التوتر التي يسببه وجودها في المكتبة، شيء من التدريب لن يضر، لسوء حظها لم تكمل فترة التدريب انتهت مبكرا عندما وقعت عين الشيخ أبي معاذ عليها وتقدم لخطبتها.

- إنتى لسه لابسة النقاب؟

برقة ابتسامته المعهودة قالها نور الذي دلف إلى الغرفة حيث تجلس أسماء، لم تنتظر كثيرا وانفجرت بوجه حبيبها:

- إنت عاوز تودينا ف داهيه يا نور؟ للدرجة دي مش خايف علينا؟

استخدام أسماء لصيغة الجمع في الحديث مقصود، فمنذ المرة الأولى التي جاءت فيها لمنزل نور وهي تؤمن بوحدة مصيرهم.

لم يرد نور على حديث أسماء، تركها وعاد إلى الصالة دون أن يعقب بالرغم مما بدا على وجهه من استياء ظاهر.

متطلعة هي وأحلامها كبيرة، رفضها للزواج من الشيخ أبي معاذ ينبع من رفضها الداخلي لبيئتها، بالرغم من إهانتها وحبسها لم تنكسر إرادتها ولم تلبّ رغبة عبد الله الساعي لبيعها، تعلم أن أخاها الكبير الفاشل يعيش في الأوهام، يريد مقايضتها في مقابل حصوله على دعم الشيخ!

عبد الله اخترع الحكاية وصدقها، صنع من ترهات الوالدة حول الجد محمد العايق وتسبب الحاج راجح في قتله حكاية صدقها، لا يريد الاعتراف بأن العايق أضاع ثروته على الحشيش والنسوان ولا يدري أن الجد المؤمن ظلم وتعالى وتكبر على خلق الله وأطلق كلابه على الناس وغشهم وتاجر ورجاله في قوتهم بإصرار وعناد، عادى جميع أهل الشارع حتى الأصدقاء فقدهم الواحد تلو الآخر، صار وحيدا بعدما بعد عنه الجميع إلا الحاج راجح.

لا يتذكر عبد الله أبدا أن جدهم قُتل جزاء وفاقا كما قَتل، يرفض قبول الواقع يعيش على أمل فارغ لا أساس له.

ومنذ الوهلة الأولى التي رأت فيها أسماء نور بالمكتبة بصحبة عبد الله وهي تخطط لاصطياده؛ فأحلامها تليق بالفتى الناجح وأمنيتها بالهرب لن تتحقق إلا على يد نور الغنى الأنيق، فسعت للتقرب منه ولم تخش صداقته بأخيها ولم تخش أن يصدها، وضعت كامل معرفتها ومعرفة صديقاتها القليلات في كفة، وحلمت أن ترجح أمام كفة نور.

حاولت في البداية فتح أبواب الحوار عبر الهاتف في الأوقات التي يتصل فيها نور بعبد الله على هاتف المنزل، توددت إلى الجدة قبل رحيلها، التمست كل الطرق المشروعة وغير المشروعة حتى وصلت بمساعدة صديقة إلى حساب نور على الفيس بوك، ومن ثم اندفعت مهرولة تجاهه.

- أنا آسفة!

هكذا قالتها أسماء التي خلعت نقابها وخرجت إلى الصالة حيث يجلس نور إيثارًا للِّين، فمن واقع بيئتها تعلم أن ضعف المرأة أمام الرجل نقطة قوة الرجال، الذين يفضلون المرأة اللينة ويعشقون شعورهم بالقوة، فأمام النساء تنهار حصونهم وتخفت قواهم يغمضون العيون وينامون وهم لا يدرون أن عيون المرأة كعيون الذئاب لا تنام.

- حصل خير.

يرد نور بفتور غير معهود، فتزيد أسماء من وتيرة ضعفها وتجلس إلى جواره.

- علشان خاطري سامحني.. إنت عارف أنا باخاف عليك قد إيه.

ماكرة هي، في البداية تستخدم صيغة الجمع والآن تلقى بالخطر كله على نور الذي يلتفت نحوها قائلا:

- إنتى خايفة من احمد يا بنتى؟ أنا ما ليش في الشارع ده غيرك وعبد الله واحمد.

يقولها نور الذي يرفض لقب ابن خالو -الجائر في نظره- ويصر على مناداة الفتى المختل باسمه الحقيقي ويحتضن أسماء التي لاذت كَوْمَتُهَا لواذا بصدره.

حديث نور وأسماء على الإنترنت تطور وازدادت مع الوقت علاقاتهم وتعمقت، سذاجة أسماء الواضحة لم تمنع قربهما؛ فنور المنفتح الذي قضى فترة المراهقة في دبى يحمل بداخله بذرة شرقية طمرتها الأيام والظواهر وراحت تكشفها الأفعال والمواقف.

أراد نور اتخاذ أسماء زوجة له، وبالفعل تحدث عبر الهاتف مع والده بهذا الشأن بعد ما ألمحت له جدته بالأمر أكثر من مرة، لكن ومنذ وفاة الجدة تغيرت كل الأفكار بعقل نور وانزوت أمام رغبته في الانتقام.

بعد وفاة الجدة انقطعت علاقة نور بالعالم الخارجي وعزف عن الجميع بما فيهم أسماء، ورفض الرد على اتصالاتها، جُنَّت الفتاة وانهارت خططها وخفت النور بحياتها، شعرت بضياع كل شيء في لحظة، لم تستسلم وحاولت بشتى الطرق الوصول لنور المنزوي بالمنزل ، الحزين على فراق جدته. المغامر وحده من يفوز باللذات؛ لذا قررت أسماء المغامرة برويَّة وتأنٍ، فأعدت كل شيء وعادت لارتداء النقاب واتفقت مع إحدى الأخوات على إقامة المقرأة في المسجد كل يوم بعد صلاة الفجر، والتزمت لعدة أيام بالصلاة فيه، تابعت تحركات عبد الله وفطنت لميعاد عودته للمنزل، من شرفتها راقبت تحركات أهل الشارع وقت الفجر، هناك وقت كاف يسمح لها بالصعود لمنزل نور بينما صلاة العجائز قائمة بالمسجد.

في اليوم المنشود، يوم حلم نور بالسفينة، يوم قرر خوض غمار معركته المؤجلة في الشارع، جمعت أسماء قوتها وانتظرت حتى

عاد عبد الله، رغم الخوف الكبير ترقبت إقامة الصلاة وتأكدت من شروع الإمام والعجائز من خلفه، هبطت من منزلها وصعدت نحو أول الشارع وتسللت لمنزل نور، ضبطت ساعتها، ساعة على الأكثر لتهبط من المنزل قبل أن يستيقظ عم عبد الواحد ويفتح دكانه.

للبدايات متعة خاصة لا تُنسَى مهما مرت الأيام، لا تعود مهما تكررت الأحداث والأفعال، فلن تنسى أسماء أبدا يومها الأول بمنزل نور..

مذاق أول حضن، أول قبلة، التعري بين يدي نور.. حبيبها الذى تحلم به مذ بلوغها وتفتّح جسدها ووعيها النفسي والحسى به، فى الماضى استمعت كثيرا لصديقاتها المتزوجات وهن يتحدثن عن الدفء والحميمية، اليوم فقط عرفت معنى الاحتراق اللذيذ ..

- كفاية يا نور يا حبيبي هاتأخر.

هكذا قالتها أسماء التي رقَّت منذ دقائق، وذابت شفتاها الرطبة بين شفتي نور، مثل طفلة التمست الفتاة الأمان بحضن نور، هامت وحلقت في الفضاء برغبة وسلاسة، انحل القميص وأطل الرمان من عليائه منفرطا بيد نور، كالرحمة والعذاب في آن واحد!

استفاقت أسماء قبل انهيار حصونها، غالبا ما تنتهى اللحظات الجميلة سريعا رغم نهم أسماء وتعطش جسدها البكر ليد نور، إلا أنها نهضت وارتدت ثيابها على عجل.. انزعج نور وزاد ما بداخله من نار جعلته يفكر جديا بحاجة لامرأة كاملة يفرغ بها ما بداخله من نار.

الجنس بالنسبة لأسماء وسيلة، ورقة رابحة دائما ما تبقى عليها للنهاية وتختزنها للحظات الصعبة، تعلم جيدا قدرتها على الربح وترجيح الكفة وتحقيق تفوق نسبي، لا تحبس جسدها ولا تبسطه كل البسط، هى تعلم أن التوازن وحده ما يكفل للمرأة النجاح.

في أعماقها تستمع بمداعبات نور، تلين وتدلف لعوالم جديدة تحترق كالفراشات تغمض عينيها وتحاول تخطي خوفها، تريد التمادي وتحلم بالمواصلة إلى النهاية لكنها تفشل في كل مرة عند ذات النقطة، تنهض مفزوعة وبداخلها خوف لم ينته بعد..

- أنا عرفت انك بتزور الشيخ ابو معاذ الأيام دي..

حب أسماء لنور تبطنه رغبة في التملك، تظهر في خوفها الشديد على أسيرها، ونور طائر حر لا يحب الأسر، واستجوابات النساء لا تروقه، لم يتعود عليها وحرص على كتم ما بداخله من أسرار على أسماء؛ لأنه فقد الثقة بالجميع منذ وفاة الجدة.

من جديد يرد بفتور:

- وإيه المشكلة يعني؟ هو احنا خلصنا من ابن خالو علشان ندخل على ابو معاذ؟

- إنت مش عارف انه كان عايز يتجوزني؟ وبعدين انت مش حلفتلي أكتر من مرة انه سوء والبعد عنه ثواب!

يقترب نور من أسماء يحدق بوجهها، يبدو عليه الغضب، يقبض على ذراعها بشدة:

- أولا اسمه احمد مش ابن خالو، آخر مرة هاقولهالك، فاهمة ولا لأ؟؟

- فاهمة.

- ثانيا أنا حر، أعرف اللي اعرفه، إنتى هتحاسبيني والا إيه ؟

- يا حبيبي، أنا خايفة عليك.

- أنا أعرف مصلحتي كويس.

يفلت نور ذراع أسماء التي تضبط نقابها وترحل مسرعة، إنها المرة الأولى التي يعاملها نور بتلك الطريقة، تخشى أن يتغير هو الآخر مثلما تغير عبد الله، تلوم نفسها، لم يكن عليها أن تسأل

نور عن علاقته بالشيخ، تلك الأمور لا تأتي هكذا ولم يبق على صدق الوعد إلا القليل.

كان نور قد وعد أسماء بالتقدم لخطبتها وإتمام الزواج بعد انتهاء عام الحداد على الجدة، أشهر معدودات وينتهي العام، هي واثقة من صدق وعد نور ومن حبه، بعد زواجهما ستتحصل على مساحتها الكافية بحياته، سينسى الجدة الراحلة وابن خالو، ضرتها في حبه، سينساه شيئا فشيئا، ستنتهى علاقته الجديدة والغريبة بالشيخ أبي معاذ، حتى عبد الله أخوها الذي شاركه نور من أجلها سينساه، لن يتذكر أحدا البتة إلا أسماء، لن يرى أحدا في هذا العالم سواها.

تهبط أسماء الدرج وتخرج من منزل نور، تسرع الخطى نحو أول الشارع، تتمشى قليلا حتى تصل إلى سوق الخضروات تشتري لوازم المنزل ثم تعود أدراجها للشارع، بعض النساء المختمرات يقفن عند عتبة مسجد السيد، ثرثرة الصباح جزء أصيل من المقرأة، قد يكون هو الجزء الأكثر إثارة، تقترب أسماء منهن اتقاء وقوعها فريسة لأحاديثهن، تطمئن على سير الأمور في المقرأة فيسألن عن صحة الوالدة، تطمئنهن بعيون خافتة وصوت مجروح وتستأذنهن وتتابع طريقها متبوعة بدعوات نساء المسجد..

- ربنا يرزقها بابن الحلال.

دكان سمير فرحه لم يزل مغلقا كعادته، عم عبد الواحد يشرع بفتح دكانه، ترى أسماء ابن خالو جالسا فوق مصطبة منزلهم الصخرية، قدماه تعبث بأرضية الشارع الترابية وضخامة جثته لا تتناسب أبدا مع صغر عقله، يحاول مداعبة عم عبد الواحد ويلقي الأحجار الصغيرة على العجوز، ينظر إلى أسماء المارة من أمامه ويبتسم، تتهرب بعينها من النظر إليه وتمتم فى سرها..

- هذا الفتى يعلم بأمري.

تؤمن أسماء أن الفتى المجنون خطر عليها وعلى نور، تعبره دون أن تكترث لعينه المقتفية آثرها، تصل للمنزل بآخر الشارع وتصعد الدرج وفور دخولها الشقة تخلع نقابها، لكنها وعلى غير عادة تجد عبد الله جالسا فوق أحد الكراسي بالصالة بعين حمراء؛ يملؤها التحفز، يسود الصمت لحظات يقطعها صوت عبد الله الذي يهب واقفا ويسألها في حزم:

- كنتي فين يا شيخة أسماء؟

8

تجمدت أوصال أسماء عندما سألها بودي، ارتبكت وزاغت عيناها، ازداد خفقان قلبها ولم تستطع الإجابة على سؤال بودي، ذهنها مشتت لأنها لم تتوقع أن ترى أخاها مستيقظا بهذا الوقت! لم تجد حلا سوى محاولة قلب الطاولة على بودي.

- إيه ده؟ أخيرا صحيت بدري زي خلق ربنا.

لوهلة يخجل عبد الله، أخته الصغيرة تهزأ به، يعبر تردده ولا يقبل الإهانة الصادرة من أسماء، يقترب منها بقوة ويجذبها من يديها..

- لما اخوكى الكبير يسألك تفوقى وتردي على طول بأدب.. فاهمة والا مش فاهمة؟

أسماء تؤمن بأن أيامها في المنزل باتت معدودة، قريبا سينقذها نور من هذا الجحيم، فمنذ فترة بعيدة لم تعد تعبأ بما يقوله عبد الله، سقطاته الكثيرة أفقدته احترامها له، إقدامه على ضربها لإرغامها على الزواج من أبي معاذ منذ سنوات أنهت ما بداخلها من حب تجاهه!

بقوة تفلت يدها من بين يد عبد الله وتنفس عن غضبها:

- مش لما تبقى تفوق انت الأول يا دكتور؟ انت ما بتشوفش نفسك في المرايا والا إيه؟

جوابها زاد ما بداخله من غضب وأشعره بالمهانة، أخته الصغيرة تتندر على أحواله فيفقد أعصابه، مر بليلة سيئة ولم ينم منذ الأمس رغم تدخينه لكمية كبيرة من الحشيش، مشاعره تجاه سارة توتر جزءً منها، واستدعاء يسرى بيه أربك حساباته، ونور الذى يتحكم وحده بإدارة المكتبة، الجميع يتآمر ضده.

بقوة يطوح بودي يديه في الهواء ويمدها باتجاه أسماء، صفعة على وجهها قد ترد له جزء من كرامته المهدرة، تسقط أسماء على الأرض وتسيل الدماء من شفتيها وتصرخ ..

تلك هي المرة الثانية التي تتعرض أسماء فيها للعنف من قبل الرجال، رغم الفارق في التربية والثقافة ودرجة المعرفة، إلا أن عبد الله ونور لجأا لذات الفعل تجاه أسماء!

أفكار أسماء صحيحة.. العنف فعل إنساني اخترعه الرجال ولم يعد بإمكانهم الاستغناء عنه مهما بلغت درجة رقيّهم أو اختلفت ثقافتهم.

تمتد صرخة أسماء لسائر أرجاء المنزل وتوقظ أمها، تترك الأم المريضة المنهكة سريرها وتخرج إلى الصالة في إثر صرخة أسماء، تحول بجسدها بين عبد الله وأخته الملقاة على الأرض وتحتضن أسماء المنفجرة في البكاء، لحظات المرض كاشفة تفضح علاقتنا بالآخرين وتظهر لنا مشاعرهم بصدق.

مرض الوالدة كشف لها القيمة الحقيقة لأسماء وجعلها تدرك مقدار جورها على الفتاة، تحاول عبثا إصلاح ما مضى من سنوات جارت فيها على صغيرتها واهتمت ببكرها ودللته، في الوقت التي أهملت فيه الصغيرة وعاملتها بإجحاف..

تصيح الوالدة بوجه عبد الله:

- يا ابني حرام عليك.. أختك بتحفّظ الناس قرآن في الجامع بعد الفجر.. بدل ما تضربها روح صلح نفسك الأول وادعي ربنا؛ يمكن يهديك ويرجعك لعقلك اللي تاه منك.

كلمات الأم سياط تجلد نفس عبد الله ، نار حارقة تخترق قلبه وتثير عذاباته، يشعر بألم داخلي يزيد وطأة عن آلام التعذيب التي لاقاها في المعتقل، يحاول إنهاء الموقف ولكن لا يدري ماذا يقول، لا يدري كيف ينهي ما بدأه منذ دقائق، يريد الاعتذار عن

كل شيء، يود لو ركع على قدميه طالبا الصفح من أمه وأخته التي لطالما دللها في الماضي.

- دلوقتى بقيتم كلكم شيوخ وعارفين ربنا، فجأة واحدة تلبس النقاب اللي قلعته بالخناق، وتحفّظ الناس قرآن، والتاني رايح جاي على ابو معاذ اللي انا متأكد انه بيكرهه من كل قلبه، خلاص بقيت انا الفاسد الوحيد في الدنيا.. سيبوني في حالي بقى..

من المضحك أن يقوم عبد الله بالجمع بين أسماء ونور في جملة واحدة، غافل وعقله مظلم لو دقق النظر قليلا وأفاق من غفوته الطويلة للاحظ علاقة أخته بنور!

عبد الله جبان لا يستطيع المواجهة، لم يجد خيرا من أسماء والوالدة ليصب عليهما جام غضبه وينفث فيهما الكراهية، يعلق على شماعتهما فشله، شارك نور أملا في النجاح وحالما بالخروج من الوحل، لم يؤت المحل ثماره بعد، وبودي يحلم بالأموال، وأفعال نور زادت الطينة بلة، صديقه صار الآمر الناهي في المحل ومالك المحل الحقيقي، وصار هو مجرد مستخدم ينفذ أوامر شريكه الجديد دون أن يمتلك القدرة على الرفض!

ترك بودي المنزل وهبط إلى الشارع، لم يزل ابن خالو جالسا فوق مصطبته الصخرية، يمر عليه بودي ولا يلقي عليه السلام، هو لا يعبأ لوجوده، ابن خالو مجرد حمل زائد فرضه نور على المحل.

يراه ابن خالو؛ فينهض معتدلا مبتسما، الولد أبيض القلب فارغ العقل دائما ما ينسى إساءات بودي ويتغاضي عنها، أو لعله لا يدرك المعاملة الجافة التي يلقاها من شريك نور، لم يعتد أن يراه باكرا، سذاجته تدفعه لاتباع خطواته، يسير إلى جواره يعرض عليه خدماته.

- عايز حاجة يا بودي.

عبد الله غضبان لا ينقصه الآن سوى ترهات الفتى المختل.

- مش ناقصة أمك!

يقولها بحسم؛ فيبهت ابن خالو ويتوقف عن اللحاق ببودي الذي يسرع خطاه إلى خارج الشارع ويسير هائما لا يدري إلى أين يذهب.. الآن يفكر في سارة حبيبته الثائرة، ماذا لو علمت الحقيقة؟ ماذا لو عرفت أنه اعتقل بسبب محادثة عابرة مع أحد الطلاب المرشدين بالكلية؟ ماذا لو عرفت أن نشاطه على

حساب الفيسبوك المزيف مجرد وسيلة لتثبيت صورة المناضل بعقلها؟ ماذا لو عرف زين العلاقة التي تربطه بسارة؟ يفكر في يسري بيه وتهديداته يردد في نفسه:

– ماذا لو تم القبض عليك مجددا يا عبد الله؟ ترى هل سينقذك الشيخ أبو معاذ – صديق نور الجديد– مرة أخرى، أم سيتركك تتعفن في السجن إلى نهاية عمرك؟

منذ بضعة شهور توجه نور لمقر الجمعية الشرعية وطلب بلطف مقابلة الشيخ أبي معاذ الذي استغرب الزيارة، توجس من الشاب اليافع، هو لم ينس أبدا نظرات الطفل نور له يوم رجم أحمد الكبير، لكنه قبل اللقاء على مضض!

بهدوء وثقة دخل نور إلى مكتب الشيخ وصافحه بحرارة وجلس مرتاحا، لم يلبث أن بدأ في التحدث بعدها باستفاضة..

بصدق فتح نور قلبه؛ أفرغ ما يثقله من ذنوب بأُذُن الشيخ المنصتة، دمعت عيناه وجاء طالبا العون يسأل الشيخ الإرشاد، يستفسر عن طريق التوبة!

بالرغم من ارتيابه، أظهر الشيخ احتراما لدموع الشاب اليافع، وربت على كتفه، وهدأ من روع قلبه.. بأريحية المنقذ تحدث

واستفاض في شرح عِظَم الذنوب على صِغَرِها في نفوس العباد وهول الحساب وانتقام الخالق. باب الله مفتوح وواجب اتباع شروط التوبة دون تفريط للتكفير عما فعل من المعاصي والذنوب، مضيفا:

- الالتزام بشرع الله وسنة نبيه وصحابته الأبرار، ومن تبعهم بإحسان، أساس لقبول التوبة.

كانت تلك شروط الشيخ ورؤيته الواضحة الواجب تنفيذها لقبول توبة نور النصوح بإذن الرحمن.. التوبة بسيطة!

انتهى الحديث وقبل أن يرحل استأذن الشيخ في حضور درسه الأسبوعي، فرحب الرجل بسعة صدر.

لم يتوقف نور عند هذا الحد، فقد أراد أن يبرهن للرجل على حسن نواياه بلغة يفهمها، وعلى ما يبدو أن الشيخ يفهمها هو الآخر، فحساب الشاب في البنك عامر إلى جانب حساب أبيه راضي الموكل بإدارته، أخرج دفتر شيكاته وحرر شيكا لحامله ووضعه على مكتب الشيخ كتبرع منه لأنشطة الجمعية.

طرق حضور نور أبواب ذاكرة أوصدها الشيخ منذ سنوات بعيدة، انتعش عقله فجأة وغاص أكثر في الأعماق، وتذكر أيام الشقاوة في شارع الشهيد وورشة النجارة ثم تمتم في سره:

- الله لا يعيد دي أيام..

استدعى الشيخ طيف أم نور وتنهد في صمت قبل أن يغوص بكامل إدراكه في تلافيف الماضي وراح يدعو لها بالرحمة.

- الله يرحمك يا فيفي..

فى نفس كل امرئ من بنى آدم شهوة تسطو على روحه وتسرق إدراكه وتدفعه عنوة للركض واتباع غرائزه البدائية.

صاحبنا حمادة ربحو - الشيخ أبو معاذ حاليا- نفسه مضروبة بالنساء، رغبته في بنات حواء لا تفتر، وغرامه بالأجساد لا ينتهي، يؤمن بأن النساء كالفاكهة، لكل امرأة رائحة ولون ومذاق مغاير مختلف ممتع بطريقة خاصة.

حمادة صقر جامح غِيَّته الصيد، يربض أمام ورشة النجارة ليتابع النساء العابرات، يقلب أجسادهن، يرسل الإيماءات ويلقي الكلمات شباكا فتعود فارغة تارة، وتربح وتعود بصيد ثمين تارة أخرى.

نسوان الشارع على اختلاف أعمارهن لم يسلمن من إشاراته، لكن فاتن غيرهن جميعا، يقولون في الأمثال إن القالب غالب وفاتن قالبها غالب يسحر العيون ويصرع الأفئدة، تضبط عليه أجساد النساء ويعاد تعديلها.

حمادة صياد، علمته الممارسة الصبر على الفريسة، عقله مشغول بالفتاة، وشفتاه تشتهي شهدها نفسه مفتونة بخفتها، يحلم بتذوق العسل والغرق فيه ولو لمرة واحدة في عمره، ظل أياما وأسابيع يسعى خلف الفتاة الفائر جسدها دون جدوى.

ينتظر مرورها كل نهار ويلقي على مسامعها كلماته المعتادة فلا تفلح، يتبع خطواتها إلى خارج الشارع يحاول فتح أبواب الحديث معها فتهرب بلطف، يزيد من محاولاته لكنها لا تعبأ به ولا تعيره أي اهتمام، بنت الخياط تنظر إليه بتعال ولا ينتهي!

ويتذكر ظهور زين ابن الحاج راجح الذي يعنِّفه دون إنذار ويكيل له الشتائم ويقلل من شأنه ويتمادى في إهانته على مسمع ومرأى من أهل الشارع، يأمره بالابتعاد عن فاتن ويتوعد بطرده من الشارع إذا خالف أوامره وفكر في التعرض لأيٍ من فتيات الشارع.

حينها ظن حمادة أن زين مرتبط بعلاقة سرية مع فاتن، وبالرغم من خشيته من تهور زين حاول التدقيق في الأمور ليفهم ما بين الفتاة وابن كبير الشارع، لكن ظنه خاب وتوقف عن مراقبة فاتن عندما تزوجت من ابن خالتها راضي، ذلك "القفل" الذي لم يقدر ما بيديه من نعمة وتركها ليجمع الأموال بالخارج!

حال المدينة عجب؛ الحالم بالبعيد لا يدنو والقريب الداني لا يرغب!

يطرق السكرتير باب مكتب الشيخ فينتزعه من غفوته البسيطة ويذكره بلقائه مع الشيخ سالم في المساء، الشيخ لم ينس الموعد، كيف له أن ينسى حدثاً بمثل هذه الأهمية؟ الليلة سيوقع عقدا مع قناة الشيخ سالم تمهيدا لظهوره الأول على شاشة التلفزيون، الليلة يحتاج إلى كامل إدراكه ويقظته، الليلة سيخطو بقدمه أولى الخطوات في عالم الشهرة والمجد.

بهدوء يترك الشيخ المكتب وطيف فاتن يهبط الدرج ويخرج إلى الشارع، يستقل السيارة الرابضة أمام باب الجمعية ويأمر السائق بالتوجه نحو منزله الجديد عند أطراف المدينة ليستريح قليلا كي يغدو جاهزا لمقابلة الليلة.

كان الشيخ قد آثر ترك شقته الصغيرة بشارع الشهيد والانتقال لمنزله الجديد منذ عدة سنوات بعد أن فتح الله عليه وغمره بنعمه وفضله، ذاع صيته بالمدينة وبدأ يُطلَب بالاسم في المدن الأخرى.

علاقته بالشارع لم تنقطع، تلاميذه بمسجد الشهيد من الإخوة والأخوات، ينقلون له كل كبيرة وصغيرة رغم كل التغيرات التي طرأت على حياته، لم يزل الشارع وأهله يشغلون باله بالرغم من كمِّ المساجد التي استقبلته والمنابر التي صدح صوته فوقها، لا يجد الشيخ نفسه إلا بمسجد السيد وفوق منبره الخشبي، لا يشعر المرء بحلاوة النجاح إلا بذات المكان الذي ذاق فيه مرارة الفشل والذل.

لنظرات التقدير والاحترام التي يجدها حمادة بعيون أهل الشارع متعة خاصة تروي ظمأ نفسه وتطفئ قليلا من النار القديمة، أهل الشارع الذين احتقروه في الماضي يتنافسون على تقبيل يده في الحاضر.. لا شيء في الدنيا يعادل متعة هذا الشعور بالنسبة لحمادة.

كل ما سبق كوم، وحرص الشيخ الشديد على نيل رضا الحاج راجح كوم آخر، رغم المرتبة العالية التي وصل إليها في

المدينة فما زال إلى الآن يخشى غضب الحاج عليه، ما زال يؤمن بأن مصيره معلق بإرادة الرجل القوى ويده.

هو يعترف أن الحاج مصطفى السني من اجتباه ومد له يد العون يوم أن لفظه الجميع وقاطعه أهل الشارع الماكرون، انتشله من براثن الوحل وطهر روحه من دنسها فتركت ما أثقلها من ذنوب وأوزار وعادت إلى بارئها تائبة مستغفرة؛ تطلب الرحمة بالهداية.

ورغم كل ما فعله الحاج مصطفى إلا أن الحاج راجح هو من رفع شأنه حينما وافق على تعيينه إمام وخطيبا لمسجد السيد قربه، صلى خلفه وقدمه لعدد من أصدقائه المهمين بالمدينة ومهد له الطريق ليصير شيخا بحق لا مجرد خطيب مغمور.

حمادة لاعب قديم بدَّل ثيابه وغيَّر موقعه في الملعب، انتقل لفريق جديد عن اقتناع وإيمان بأفضليته، الرجل العجوز مدرب ماهر يعشق اللعب بالأوراق، يدرك فائدة شيخ مثل حمادة فوق منبر شارع الشهيد، ولاعبه الجديد حمادة له خبرة دولية، يتقن اللعب بالبيضة والحجر، هو في الأساس ابن لاعب قديم من لاعبي فريق الحاج، يفهم متطلبات مركزه الجديد وينفذ توجيهاته

بمجرد إيماءة، تماما كما كان أبوه في الماضي ولكن بعقل أكثر وعيا، يدرك كيفية الاستفادة من خدماته الثمينة.

مباراة الشيخ حمادة الأولى جرت في الشارع حينما بدأت عزة سكر تتحدث إلى أهل الشارع وتقسم لهم بأن زين ابن الحاج هو المتسبب بحملها، حديثها الفاضح كمثل نار في أجواف الخلق تطفئها ألسنتهم بقذف حروفها المشتعلة للخارج.. لم ينتظر حمادة طلبا من المدرب فأجرى الإحماءات فوق منبر المسجد وأذكى النار في أجواف الخلق بحيث لا يطفئها كلام ولا تنفيس، فأبكاهم وأوغر صدورهم بالغل تجاه الفاعل الحقيقي.

لا أحد يفعل تلك المصيبة سوى أحمد الكبير ذلك الزاني النجس، لم يجد سوى أخته ليفرغ شهوته فيها.. أخيرا سجل حمادة هدفه الأول وأنقذ "زين" من الفضيحة وقطع الطريق أمام اتهامات عزة سكر للرجل الشريف.

الدنيا تكافئ المجتهد وحمادة ذو الحس النابه والتدبير الناجع مجتهد، كافأته الدنيا عندما أكدت على اتهاماته لأحمد الكبير، الشيخ لم يفترِ على المختل، لم يرمه بالباطل، بل كان اتهامه إلهاما إلهيا، وها هو ولده الصغير يكبر، وتظهر عليه علامات التخلف والعته كأبيه تأكيدا على صدق رؤية الشيخ وحسن نواياه.

ولو كان زين هو من دخل بها لولد الفتى طبيعيا!

الحاج راجح رجل سخي لم ينتظر طويلا ودفع ثمن خدمة حمادة عندما عرفه على يسري بيه ضابط أمن الدولة، حينها فقط فتحت لحمادة أبواب النعيم على مصاريعها.

توجيهات يسري بيه حفزت حمادة وحمسته، الرجل يمثل الحكومة، ومن ترضَ عنه الحكومة في المدينة تُفتَحْ له أبواب السعد، شرط أن يتبع التعليمات ولا يحيد عن الخط المرسوم!

رجال الحكومة يدركون أهمية الدين في المجتمع ويعلمون مدى تأثيره على البسطاء، ينجحون في التلاعب به وتوظيفه لمصالحهم على مر العصور، تغيرت الأديان وتغير الناس وتغير شكل المدينة وبقي رجال الحكومة على حالهم يحكمون الناس ويتحكمون في الدين.

اجتهد حمادة أكثر وطور من أدائه بحفظ أجزاء كثيرة من القرآن، وكتب الحديث الست، ووساطة يسرى بيه سمحت له بالالتحاق بمعهد إعداد الدعاة بالعاصمة رغم مؤهله المتوسط وصار نجما بمجتمع المدينة الصغير شيئا فشيئا حتى انتهى اسم حمادة ربحو للأبد وبدأ الشيخ أبو معاذ يتحسس الطريق نحو الشهرة والمكانة التي يستحقها اسمه!

زيارة نور الأولى للشيخ لم تكن سوى مجرد بداية لم يكتف بها نور بل أتبعها بزيارات أخرى قام بها الشاب وهداياه الثمينة للشيخ الواعي.

الحذاقة والفطنة هما الأصل فى تكوين ابن البلد، الصفتان أصيلتان في نفسه، أيام الشقاوة نحتت شخصيته وأكسبته مهارة خاصة لفهم الناس، الذي يضحك على الخلق لا يضحك عليه أحد مهما كان!

اقتراب نور بهداياه والمبالغ النقدية التي يقدمها بانتظام؛ أخافا قلب الشيخ وأدخلا فيه الشكوك، بات ينظر للفتى بكثير من الريبة، رغم خبراته الطويلة كشيخ محترف إلا أن الحيطة واجبة ولا أحد يدري ماذا يريد الفتى تحديدا، يدرك الرجل أن أهل الشارع ماكرون حتى لو أظهروا الطيبة، ولا ينسى أبدا ما فعلوه به قبل أن يهديه الله.

الذقن القصيرة والملابس المهندمة دون إطالة والالتزام في صلاة الجماعة بمسجد السيد وحضوره لدروس الشيخ الأسبوعية، وقبل كل شيء الهدايا والمبالغ تصلح كبداية لا بأس بها، كل هذا أدخل شيئا من الطمأنينة إلى قلب الشيخ وإن ظل شاعرا بشيء من القلق، الرجل ينتظر أن يبوح له نور بما يريد حقا، لا أحد يدفع

دون أن ينتظر مقابلا يخشى أن يسأله المساعدة كما سأله عبد الله منذ سنوات!

هو لا ينسى أبدا أن عبد الله الأهوج رفض تزويجه أخته أسماء لرفضه اتباع كلماته، وأنكر ما حكاه الفتى عن جده العايق بالرغم من تلألؤ أسماء بعين الشيخ حينها ورغبته الجامحة فيها، إلا أنه ارتآها ثمنا بخسا نظير ما طلبه عبد الله.

- تغور ويغور عبد الله وأهل الشارع كلهم.

هو لا يقوى بل لا يجرؤ على التفكير في معاداة الحاج راجح، يعلم أن الرجل وعلى كبر سنه لم يزل يمتلك ما يكفي من القوة للقضاء عليه لم يزل هو السيد الآمر الناهي في الشارع والمدينة بأسرها.

يؤمن الشيخ بتفاهة عبد الله وضعفه وباستحالة أحلامه في الحصول على قرش واحد من الحاج، يعلم أن فترة اعتقاله البسيطة أفقدته التزامه الديني وحادت به عن الطريق حتى صار مثالا للشاب الفاسد.

الفتى لا يعلم عن ميراثهم شيئا، نعم يدري طرفا من الحكاية لكنه لا يفطن لكثير من التفاصيل ولا يعرف أن والد الشيخ

السكير هو من ضغط الزناد وقبض روح جده العايق ليشتري ودَّ الحاج راجح.

شقة صغيرة بأحد المنازل المتهالكة آخر الشارع ومحل صغير في المنتصف استخدمه حمادة كورشة في الماضي، كانت تلك مكافأة الحاج لوالد الشيخ الغبي الذي لم يقدر حجم التجارة ولا الأراضي التي استولى عليها الحاج راجح بعد مقتل العايق وضيع الفرصة السانحة كما تعود طوال حياته.

الحكاية كما حكاها والد حمادة بدأت منذ سنوات بعيدة عندما هبط الريس إبراهيم السوهاجي إلى المنطقة، حينها كانت الأرض براحا وأراضي زراعية كبيرة المساحة تؤول ملكيتها لخواجة عابث يعيش وحيدا في قصره الكبير ويقف والد حمادة على بابه حارسا.

وفى غفلة من الخواجة استغل الحارس قطعة أرض خلف القصر وبدأ يؤجرها لنفر من الباعة وغيرهم ممن لا مأوى لهم، وبذلك أدخل الثعالب وكر الأسد الغافل.

إبراهيم السوهاجي كان أول الثعالب من أبناء الجنوب، هم مثل الجراد لا يتقنون الحياة إلا في أسراب، لم يطل السوهاجي

المكوث وحيدا فبعث إلى صديقيه العايق وراجح للحاق به في المدينة الصغيرة، فأهلها سذج ورزقها واسع.

بقدرة القادر الكريم صارت العشة بالغة الضيق على السوهاجي تسع ثلاثة رجال، يخرجون كل فجر ليبحثوا عن الرزق ويعودوا في المساء رابحين، بطونهم ممتلئة وجيوبهم عامرة بالأموال التي لم يعرفوها إلا عندما حطوا رحالهم في المدينة.

السوهاجي رجل واعر، قلبه ميت، لم يستدع أصدقاءه إلا لحاجة لا يقوى عليها وحيدا!

ساند الرجلان السوهاجي ووثقا فيه ووضعا أيديهم في يديه وساعدوه بكل قوة، ومع الأيام تحسنت أحوالهم أكثر؛ فيد الجماعة أقوى من يد الفرد بالبداهة، واستغلوا قيام الثورة وهروب الخواجة إلى خارج البلاد وضربوا ضربتهم الكبرى.

ببأس السوهاجي وحنكة العايق وعلاقات راجح أصغرهم، وضع الثلاثة أيديهم على أراضي الحي ونجحوا في تزوير العقود وغيروا السجلات، وفى غفلة من الجميع صارت أراضي الحى الصغير ملكا لهم.

لم ينتظر السوهاجي طويلا فنصب نفسه كبيرا على الجميع، بنى لنفسه منزلا إلى جوار القصر التي صادرته الحكومة وحولته مدرسة، لم يعد يهتم لأمر أصدقائه القدامى، ألقى لهم بالفتات وعاملهم بقسوة، ولم يجرؤ أحدا فيهم على معارضته!

الله يمهل ولا يهمل رزق السوهاجي بطفل مختل فلم يتعظ، الرجل الحالم بالسطوة لا يشبع أبدا من نهمه للسيطرة، ازداد قوة مع كل قطعة أرض ينجح في الاستيلاء عليها وضمها إلى مملكته الصغيرة، لم يهده سوى المرض الذي خطفه مبكرا من أحضان زوجته وابنيه أحمد الكبير وعزة سكر وأنهى السرطان حياته في بضع أشهر دونما رحمة.

أما العايق، الرجل التقي الحافظ لكتاب الله، فلم يعتبر مع ذلك، ففور أن شيع الناس جنازة السوهاجي وقف بين الناس خطيبا واعدا إياهم بالعدول عن الظلم والتزام الحق وردِّ حقوق المظلومين، وإن كان بالفعل أعاد بعض الأراضي التي سلبها السوهاجي لأصحابها وأقسم على مشاطرة ما سيتبقى من الأراضي والأملاك مع راجح الذي سانده ليستولي على الثروة كاملها؛ إلا أنه كالعادة نكث بالوعود!

يبدو أن المشكلة أعمق كثيرا من السوهاجي والعايق، المكلة ترتكز في تلك السلطة الملعونة التي ترتبط ارتباطا وثيقا بالظلم والجور والتجبر والطغيان، حتى لو اقتصر ذلك الظلم على فئة أو شخص واحد فقط.

ابتغاء مرضاه الله أعاد العايق الأراضي التي سلبها السوهاجي عنوة من الناس، انتصر للحق وأزهق الباطل القديم بيديه، ثم بدأ في صنع باطل جديد بمعاونة أتباعه الجدد وراح يغتصب أراضي جديدة واحتال على الخلق باع لهم الوهم شاركهم في التجارة وعدهم بالأرباح في النهاية خسر الجميع إلا هو وأتباعه.

حنث العايق بالقسم ولم يشارك صديقه "راجح" في شيء، نام وسط عزوته الجديدة مطمئن البال بنفس مرتاحة تتوق لحلاوة العز، راح يركض وراء النساء، وصار الحشيش رفيق لياليه، عرف طريق التكبر على الخلق وأغفل جانب راجح الذي انخدع بهدوئه ولم يتوقع أن يكري راجح والد حمادة ليقتله يوم عرسه لتعاد الكرة من جديد وتنتقل الثروة والسلطة والمكانة لراجح الثعبان الذي لا ينام ولا يغفل عن أي شيء حوله.

الثعبان الشائخ لا يدري أن النية حاضرة، والقاتل الذي لم ولن يتوقعه أبدا يتجهز الآن ويشحذ نصل خنجره منتظرا اللحظة المناسبة للانقضاض والقتل.

9

تمر الدقائق ثقال ولم يزل راضي يجلس عاريا في البانيو خاوي الذهن لا يفكر في شيء!

لم يخفف انخفاض درجة حرارة المياه من أثر الحرارة السارية بجسده المرهق، هو لا يدري كيف وصل إلى تلك الحالة، يتساءل في نفسه.. أيعقل أن يقلد المراهقين الآن وهو بمثل عمره؟

يتندر على حاله بسخرية المحطم:

- شكلى كبرت وخرّفت.

منذ عدة أيام وراضي يعاني الأرق، باله المشغول يعاند جسده ويرفض التوقف عن التفكير، يرفض إعطاءه هدنة صغيرة للراحة، الحبوب المهدئة لم تؤت أثرها ولم تفلح في كسر إرادة عقله اليقظ، فجأة لمعت بذهنه فكرة الاسترخاء في المياه الدافئة بعدما استنفذ كافة المحاولات.

لم ينتظر كثيرا، دلف إلى الحمام وفتح صنبور المياه الساخنة وملأ البانيو عن آخره، وأفرغ زجاجة شامبو كاملة في المياه وأخرج من الخزانة فواحة البخور الهندي وأشعلها فسرى طيبها بين

سحابات المياه المتبخرة، لم ينتظر طويلا، غاص بكامل جسده في البانيو واضطجع مغمض العينين يسأل المياه السكينة، يأمل في الراحة ويرغب في صفاء وقتي لذهنه المضطرب.

التردي بحالة راضي بدأ بعدما اتخذ مالكو الشركة الجدد قرارا بإقصائه من منصبه الإداري وترقيته كمستشار اقتصادي للشركة براتب خُفِّض للنصف ودون أية صلاحيات، الأمر لا يحتاج للشرح، الملاك الجدد استغنوا عن خدمات الرجل الذي بنيت الشركة على ساعديه، لكنهم لا يريدون إحراجه، يواربون الباب أمامه تقديرا لمجهوداته، تلك هي فرصته الأخيرة لحفظ كرامته بالتنحي وترك الشركة بشرف، لكنه ولطبيعته الخاصة مازال يفكر إلى الآن ويفشل في اتخاذ القرار المناسب!

السؤال الأهم منذ متى ينجح راضي في اتخاذ القرارات المتعلقة بحياته؟

كفاءته الاقتصادية وخبراته العملية وثقافته لم تغير شيئا من طباعه الشخصية؛ فلم يزل على حاله القديم يتقن نصيحة الآخرين، يفلح في التنظير ورسم الخطط ولكنه يعجز عن اتخاذ القرار المناسب لحياته الشخصية، ينتظر أن يحدد له الآخرون ما

يرونه مناسبا له بالنيابة عنه، ينتظر أن يجيب نور على اتصالاته المتكررة، هو في الأساس لا يفلح سوى في الهرب.

يسرح راضي في الماضي، يعود إلى العام الذي هرب فيه وجاء إلى دبي وبدأ العمل في الشركة بعد ميلاد نور بشهور، لم يستطع حينها احتمال جحود فاتن ونكرانها لفضله ومعاملتها الفاترة تجاهه بعد كل ما تنازل عنه من أجلها!

حينها كانت دبي مدينة صغيرة، طفلة تتحسس الطريق نحو الغد وتحلم بإصرار أن تبدل ثوبها البدوي وتنفتح على العالم وتنهض وتخطو بعزم إلى المستقبل بنسق مضطرد، تركض للحاق بركب الحضارة الحديثة.

في البداية عمل راضي محاسبا بالمؤسسة التي راحت تكبر مع الأيام وتتمدد أنشطتها مع المدينة، مرت السنوات بتسارع وراضي لا يدخر جهدا ويبذل أقصى وسعه في العمل، يجتهد ويطور من أفكاره، يزيد من اطلاعه، يراقب الأسواق العالمية ليتعلم، ويقرأ في السياسة وتأثيراتها على الاقتصاد، وفى الليل يكفن روحه التعبة بالصمت ويدفنها في الوحدة.

عندما يفكر في سنوات عمره الماضية يفتش عن الأيام السعيدة التي عاشها، تبرز أمامه سنوات ثمان قضاها نور معه في دبي وأيامه الأولى مع هند زوجته الثانية.

يتساءل مجددا حول السبب الحقيقي الذي يمنع عقله عن التوقف؛ لماذا لا ينتهي انتباه جسده ويقظته؟! تطرأ فكرة الاستمناء على عقله، يأمل في أن تقضي على آخر قواه وتفلح في هزيمة عقله المنتبه.

وبخجل تغوص يد راضي في المياه الفاترة تتحسس طريقها نحو عضو ذكورته الساكن وتشرع في مداعبته برفق، فلا يظهر لها تأثير، الوضع كما هو، لم يتغير شيء!

يحتاج الأمر لتركيز، يحتاج لعامل خارجي يضاف للمعادلة، يقلب راضي ذاكرته يفتش عن صورة لفاتن فلا يجد غير واحدة لفتاة في الثالثة عشرة من عمرها تمسك بيده وتنظر إلى عينه وتبتسم، تزداد حيرة راضي، يكفهرُّ وجهه يشعر بالازدراء، كيف يفكر في انتهاك حرمة الموتى؟ كيف يفكر في حبيبته فاتن بهذا الشكل المخجل؟ ألم يجد غيرها ليستحضر صورتها تلبية لرغبته الشائنة؟!

بعد برهة من تأنيب الضمير يحاول مجددا أن يوجه تركيزه على هند زوجته الثانية العراقية، من جديد يغلق عينه يحاول التركيز، لا يوجد خير من هند ليستدعي صورتها، لكنها تعانده وتأبى الحضور هي الأخرى، ترفض الرد على نداءات عقلة الباطن، في النهاية تأتيه صورة مهتزة مشوشه مبتورة الأطراف تماما كصور جرحى وقتلى مفخخات بغداد.

بعد وفاة فاتن أتم راضي زواجه بهند المسكينة والتي قدمت دبى بعد الغزو الأمريكي هربا من الموت الذي استوطن ديارها، أقامت عند خالها منذر صَدِيق راضي وزميله في العمل والذي خطط لإتمام الزيجة منذ اللحظة الأولى لوصول الفتاة، يقولون في الأمثال: اخطب لبنتك ولا تخطب لابنك، يعشق منذر الأمثال ولا يخجل من عرض أمر الزواج بهند على راضي، المرأة وحيدة وجمالها ناضج، قتل الأمريكان زوجها بتهمة الدفاع عن الوطن والمقاومة، وقتلوا أباها بتهمة التخابر مع المحتلين، فلا سند لها في الدنيا سوى خالها المشغول بعياله، والإقامة في دبى باهظة التكاليف، لا بأس من عرض بنت أخته الأرملة على صديقه الوحيد!

مسكين راضي كهند، موت زوجته المفاجئ سرق روحه وأضنى جوانحه، والرجل يحتاج لامرأة تضيء بيته وتوصل الحرارة بجسده،

لا بأس من تكرار الأمر عليه حتى مع رفضه، لا بأس من مخاطبة نور ولده الناجح لإقناعه!

بعد إلحاح من منذر ومباركة من نور وافق راضي على الزواج، شرط ألا تطلب منه هند الإنجاب، فالرجل اكتفى بولده الوحيد نور وهو لا يريد أطفالا صغار؛ فلا يثق في الغد ولا يدري هل سيعيش ليربيهم كما ربى نور أم لا؟

ينفض راضي غبار الذكريات عن ذهنه ويحاول التركيز، يسرح بخياله في هند ويزيد من وتيرة حركة يده محاولا الإمساك بجسد هند الراكض بفناء عقله ينادي عليها فترفض الإصغاء لنداءاته، أخيرا يستيقظ عضوه ويبدأ في النهوض من ثباته الطويل مما زاد من انفعال وتوتر راضي، لم يعد يفكر في النوم الآن، نسي لوهلة أزمة العمل وصار يبحث عن رجولته التي تتباطأ وتأبى الحضور!

مر العام الأول لراضي مع هند دافئا رغم شعوره المحايد في البداية، إلا أحواله تحسنت بوجود امرأة جديدة بحياته، هند ذكية تقدر معروف راضي وتحرص على رضاه وتعامله بإكبار واحترام زائدين، تصنع له الطعام بحب وتشعل مضجعه، تبث الحياة بجسده دون جلبة وتضيء عالمه الصغير بحنان ولطف.

والحق أن الرجل لم يبخل عليها بشيء، بداية من الشقة التي جهزها بكافة وسائل الراحة وأتم فيها الزواج، وطاقم الحلي الذهبي الثمين الذي أهدادها إياه، والثياب والهدايا الأخرى التي غمرها بها بمناسبة وبغير مناسبة رغم قلبه المتيم بفاتن الراحلة، بدأ راضي يشعر بقيمة هند في حياته وصار وجودها ضروريا له، فحضورها المميز في حياته فتح شهيته للحياة من جديد، وباستغراب راح يفكر في ذلك الحب الذي قيده لسنوات طويلة، حاول فهم السبب الحقيقي لنفور فاتن وتمنعها؟

المال والبنون زينة الحياة الدنيا، وراضي قدم لهند المال ورفض أن يمنحها ولدا من صلبه وقبلت بطيب خاطر، ظروفها الصعبة وشعورها بنفور خالها منذر دفعها للموافقة على شرط راضي في البداية لكنها وبعد مرور عام على الزواج وإحساسها بحب راضي بدأت تتحدث معه بأمر الأطفال، تارة بالدلال وتارة أخرى بالحدة، في النهاية لم تجد ردا شافيا من راضي الذي تهرب من طلبها وذكّرها بشرطه، وحدثها عن سنه الكبيرة ثم شكاها لخالها منذر.

إلحاح هند أثار حفيظة راضي، المرأة لم تعد تكترث لتحذيراته ولا تتوقف عن إزعاجه، حتى الهدايا لم تعد تفلح معها، صمتها

وعودتها لرشدها صار مرهونا بأمر الإنجاب، في النهاية لم يجد راضي بدا من إنهاء ذلك الصداع؛ طلق هند وأعطاها كامل حقوقها الشرعية.

هي لم تفهم موقف راضي، رغبتها في الإنجاب دفعتها لنسيان جميل الرجل، هند كسائر النساء، الجنون يدفعهن للتهور والركض وراء رغباتهن دون حساب للعواقب، لم تتصور أن يستغني راضي عنها بكل تلك السهولة، لم تفهم أن الأمر ليس بيده، ولم تفطن إلى احتياجه هو الآخر لولد من صلبه، لا تعلم أن فحلها عاقر لا يستطيع الإنجاب ولا يستطيع البوح لها بسره، ولا يأتمن إنسانا على مكنون نفسه، خوفه على نور يمنعه، ومحبته لزوجته فاتن الراحلة تكبله.

ينهض راضي من البانيو يستند بأليته على الحافة، يجمع تركيزه من جديد، فيلقي عليه خياله بجسد لامرأة غريبة شهية التفاصيل رهيفة المنحنيات فاتنة الجسد؛ فيصحو الغافل ويزدهر، ينتصب احتراما للمرأة المثيرة.

ما أبدعها من لوحة تلك التي كونها خيالك يا راضي!

يدفعه الشغف لمطالعة وجه امرأته الخيالية التي صنعها بيده، يبرق جسدها بعينه ويرتقي بنظره، يقبض على تفاحتيها النافرتين

ويعتصرهما بكفيه، ثم يقبض عنقها يحاول امتصاص رحيقها، يصل أخيرا لوجهته، يستفيق خياله فجأة فيسقط "أيْره" مغشيا عليه، الرجل المشوش تفنن في صنع امرأة دون وجه!

"المصائب لا تأتى فرادى".. لم يرأف القدر بحال راضي، ولم يكتف بانهيار حياته العملية، وأتبعها بانهيار فحولته، هو لا يدري ما ينتظره بعد كل هذا الفشل، والخيبة تمتص روحه، طوال حياته لم يصل لذلك الوضع المزري من قبل أو لعله وصل!

يفرغ الرجل مياه البانيو الفاسدة، ويبدأ في غسل جسده التعب، يحاول إزاحة الوحل عن روحه يخرج إلى غرفة نومه ويرتدي ثيابه، يمسك بالهاتف الجوال يحاول الاتصال بنور، ينتظر أن يجيب ولده الوحيد، يحلم بطوق نجاة يأتيه من المدينة، يتمنى أن يخفف نور من وطأة ما يشعر به، يشير عليه بالصواب ويدعوه للعودة، يخبره باحتياجه إليه ويحدثه عن دوره الهام في حياته وينهى مأساته، ينتهي رنين التليفون دون رد، لا ييأس ويحاول مجددا؛ فآماله صارت معلقة بصوت نور، ويستمر رنين الهاتف دون رد.

منذ وفاة الجدة وأحوال نور لا تروق لراضي، فقد صار الفتى غريبا، يترك عمله المرموق دون تفسير ويبدل خططه بالسفر إلى أوربا، يدخل شراكة مضحكة مع صديقه عبد الله ويعزف عن

الزواج من الفتاة التي تحدث مع راضي بشأنها قبل وفاة الجدة، ترتفع وتيرة سحبه للأموال من الحساب البنكي ويتهرب من الرد على اتصالات والده، كل تلك الأمور وغيرها تجعل قلب راضي يتوجس خيفة على ولده، يقتحم الشك عقله ويدفعه للوجل، يحثه على التساؤل:

- هل فعلتها الجدة؟ هل حكت لنور ما حدث؟

الجدة الراحلة امرأة طيبة لم تدرك السبب الحقيقي لكل ما جرى وما زال يجرى في الشارع، سذاجتها دفعتها للإيمان بإبراهيم وبأفضليته على العايق وراجح!

هي كباقي أهل الشارع هللت لرحيل الخواجة وحلمت معهم بشارع يسوده العدل وعماده القسط، فراحوا يهرولون تجاه عدل مؤقت اعتمد على شخص فانٍ وعلى أساس مهترئ لا مستقبل له.

جهلهم غشى الأبصار، ولم يفلح إيمانهم البسيط في إدراك المعنى الحقيقى للحياة القاسية التي تقدر الظالمين حق التقدير وتجفل حق البسطاء وتطويهم دون ذكر أو أثر.

المساكين غفلوا للحظة عن فكرة أن السلطة نعمة إلهية يمنحها الخالق لمن يشاء، لم ولن يفهموا أن للقيادة جينات تورث كالنبوة والملك، تختلف تماما عن جينات العامة، الخواجة جيناته نقية، تربى ليقود ويحكم، ظلم البعض ليعدل، وجوده حتمي لضبط نسق الحياة في الشارع والمدينة والبلاد تماما كضرورة وجود العامة.

فرحوا بطرد الخواجة أصل الشارع نزعوا جذور سلطانه وحاولوا بكل الطرق وأد آثاره ولم يحسبوا أبدا أن رحيله سيخل بالأمور ويدفعها للتدهور حتى وصلت لهذا الحد من السوء.

- ترى بماذا تفكر يا نور؟ ماذا تريد من الشارع وأهله؟ لماذا تتهرب وترفض الإجابة على اتصالاتي؟ هل حان الوقت لأخسر كل شيء حتى أنت؟

منذ الطفولة وراضي يحب بنت خالته فاتن، يتحسس خطاها، خفتها تخطف قلبه ووجودها يثير مشاعره ويجعله يتلعثم في الكلمات، حلم وحيدا بالزواج منها، وبالرغم من مشاعره البادية إلا أنه لم يجرؤ على الاعتراف لها بحبه واكتفى بنظراته الخجلة، توهم بأن المشاعر الصادقة تعبر حدود الكلمات وتنقلها القلوب بلغة خاصة لا يفطن لها سوى العاشقين.

أحلام الصبايا شراك خادعة تكسر أفئدتهن وتحطم حيواتهن في لحظة!

فاتن فتاة جميلة تشعر بذاتها وتحب التطلع إلى صورتها في عيون الشباب، تعشق انكسارهم أمامها، تبغى الخروج من الشارع ولا تعجبها الحياة في الحي، تحلم بزوج مقدام قوي يشد على يديها ويشعرها بأنوثتها وضعفها، يخطفها على جواده ويرحل بعيدا، وزين سيد شباب الشارع حديثه ساحر وعطره مسكر، أما فارس فهو مقدام ليس له مثيل، يليق بفاتن يعجب بها ويشاغلها ويتبع خطواتها ويحاصرها، لا يترك لها فرصة للفرار، يعبر لها بقوة عن إعجابه بشدة يصرح لها بحبه، فترضخ الفتاة وتنكسر إرادتها ثم تدلف إلى عالمه؛ لا تهتم بسيرته السيئة راضية ولا تكترث لما يقوله الناس عنه، إصراره يروقها وتصميمه يثير مشاعرها، رغبته الصلدة فيها تحفز نفسها تدفعها باتجاهه.

حبال زين طويلة وحيله كثيرة، وفاتن فتاة خام تحلم بالحب وتأمل في الهرب، تعجب بالفتى الساعي إلى جسدها، صمدت كثيرا أمام محاولاته، وفي النهاية انهزمت الفتاة وألقت بسلة التفاح واتبعت طريق الذئب الذي كافح طويلا كي يصل لمبتغاه.

في النهاية غابت السكرة وظهرت الفكرة، عندما اخبرت فاتن زين بحملها، اهتز الفارس المقدام وظهر معدنه الحقيقي، شبع الفأر فلم يجد بدا من الهرب، تنكر من الفتاة ولم يهتم بتوسلاتها ولم يعد يبتغيها، كيف له أن يغامر ويتزوج فتاة مثلها؟

توسلات الأم المكلومة على ابنتها الوحيدة لم تجدِ نفعا مع الحاج راجح، ولم يصغ لحديثها وعاملها وابنتها بفتور وازدراء، لم يقدر ما هم فيه من البلاء، ورفض إصلاح خطأ ابنه، هددهم بقوته وأخافهم بجبروته، حاول شراء صمتهم بأمواله، مصيبة الأم ثقيلة وخيبة أملها في وحيدتها كبيرة؛ إذا لم تتزوج الفتاة سيُفتَضَح أمرها في الشارع، لن يرحمهم أحد ولن يقف إلى جوارهم إنسان أيا كان.

يبرز راضي من بعيد وتبوح الجدة لابن أختها الحبيب بمصيبتها، تأمل في عطفه، كلماتها تلكم قلبه وتحسره على نفسه، يريد أن ينفجر ويصرخ بوجهها، الدموع تغرق عينه والألم يضني قلبه ولا يجد مفرا من الثبات، لا يجد طريقة أخرى لحفظ شرف العائلة، يُهدِّئ من روع خالته، والإجهاض رهان خاسر وحل قد يودي بحياة فاتن، هو لا يستطيع المغامرة ولن يسامح نفسه أبدا إذا حدث لها مكروه.

لم يخفف فؤاد راضي المحطم من وطأه الشعور بالذنب، هو مسؤول عن تلك الجريمة بصمته وضعفه في المجاهرة بحبه، هو من دفع فاتن دفعا نحو زين، هو من تركها فريسة للذئب ولا سبيل أمامه سوى التكفير عن خطيئته، زواجه من فاتن لسترها بات ضرورة، لن يهرب، لن يتخلى عنها، هناك طفل ينمو بأحشاء حبيبته يحتاج لوالد.

وإمعانا في النبل تزوج راضي من فاتن، وفرح بقدوم طفلها إلى العالم، زرع الله الرحمة ومحبة الطفل في قلب الرجل، اختار راضي اسم نور طمعا في أن يضيء الصغير حياته، وقرر فتح صفحة جديدة مع فاتن، هو يؤمن بأن الحب شعور سماوي يعلو بالأنفس ويشفي القلوب ويرتقي بالعقول، يطهر الأجساد من خطاياها وينقلها من عالمها المحدود إلى عالم أبدي .. لا نهاية له.

إيمان راضي بالحب حثه على تطهير أفكاره، نبذ بعض المصطلحات من نفسه، كالشرف والكرامة والأخلاق والعرف، هو يعلم أن الكلمات حيّات تبدل جلودها وتختلف تعريفاتها باختلاف الزمان والمكان وتتوافق مع رغبات الكثرة في التحكم بالمجتمعات، تصنع إطارا وهميا يحجر على إرادة الإنسان وتحد من

تطلعاته وتقيد حريته، تجبره على السير بخط مستقيم، يقتل الروح ويصيبها بالصمم.

فاتن عنيدة وصدمتها في زين لم تصلح عقلها الخرب ولم تكسر إرادتها؛ فبدلا من أن تصون معروف راضي وتقابل إحسانه بالإحسان، نفرت منه، قابلته بإجحاف واكتفت بالورقة التي تربطها بابن خالتها بفتور، وسلمت له جسدها، لم يجد راضي بُدًّا من الرحيل والابتعاد عن الشارع والمدينة، ترك الحياة المقدرة له وسعى وراء حياة جديدة في مدينة أخرى لتمر الأعوام ويعيش عمره في بلاد غريبة عنه، يخشى الآن أن يغادرها ويعود إلى مدينة صار غريبا عنها.

10

رفع مؤذن مسجد الشهيد أذان ظهر يوم الجمعة، المسجد ممتلئ، والأعداد ما زالت تتزايد، لا أحد يفوت خطبة الشيخ أبي معاذ، منذ لحظات دلف الرجل إلى المسجد بتواضع وشق طريقه نحو المنبر، توقف قبل الصعود واقترب من الحاج راجح الذي ارتكن إلى أحد الأعمدة بالصف الأول إلى جوار زين، فمرض الرجل لم يثنه عن تأدية صلاة الجمعة في المسجد.

نظرات الإكبار في عيون الناس تحسّن حالة الحاج النفسية وترفع من روحه المعنوية، تبث في جسده دفعات من الطاقة يحارب بها المرض ويحاول هزيمته، كيف يموت ويترك كل هذا؟

يصافح أبو معاذ زين بودٍّ ويقبل رأس الحاج راجح، يتركهما، يهم لصعود درجات المنبر الخشبي، بهدوء يجلس، عقله يراجع نقاط الخطبة ويفكر في أوامر يسري بيه..

- الناس غضبانه على الحكومة، ضرورى تهديهم بأى طريقة، أحاديث.. قرآن.. فقه، إنت أدرى بشغلك!

هكذا تحدث الرجل الواضح توتره، يبدو أن الأمر جد خطيٌر، ليس من عادة يسري بيه استدعاءه فجأة كما حدث بالأمس، لم يحدث أبدا أن أبدى الرجل اكتراثا بغضب الناس!

تطلع أبو معاذ بإمعان في وجوه الحضور، الخشوع البادي على الوجوه راقه، وزاد من ثقته وملأ صدره زهوا، لم ينتظر طويلا ووقف منتصبا بعد أن انتهى المؤذن من رفع الأذان، بنبرة هادئة ولغة مستفيضة شرع في الحديث:

- بسم الله، الحمد لله الصلاة والسلام على سيدي وسيدكم خير خلق الله الهادي محمد بن عبد الله.

في الخارج خلا الشارع من المارّين وندرت الحركة فيه، كالعادة أغلق عم عبد الواحد البقال دكانه منذ مساء الأمس، وبودي فون لم يفتح أبوابه أمام الزبائن، أما سمير فرخة فقد ترك المحل للعاملة الريفية ودلف إلى المسجد وانحشر وسط الجموع المصغية.

من بعيد ظهر عبد الله يسير نحو المسجد بشكل مضطرب، لا يدخل، يتجاوز الباب ويتوقف عند أول الشارع، وجهه شاحب والتردد يملأ عينيه، الخوف يسرح بقلبه منذ الأمس والحيرة تلهو بعقله، يفكر فيما نوى وأقسم على تنفيذه مهما كانت النتائج.

موجة التظاهرات الجارية في العاصمة منذ أيام شجعت عبد الله وبثت الأمل في قلبه وحثته على التحرك، أيا كانت النتائج فلن تكون أسوأ مما حدث له في السابق، لم ينتظر كثيرا وأجرى عدة مكالمات هاتفية لأصدقائه القدامى من أهل الثقة، واستخدم هاتفا عموميا في المحادثات، الإقدام لا يمنع الحيطة والحذر، اجتمع مع أصدقاء سارة وتحدث معهم ورفع من معنوياتهم، حقَّر الأخطار في عيونهم، للحرية ثمن لا بد أن يُدفَع، ورفاق سارة صغار، حماسهم طاغ وثورتهم جامحة وغضبهم على الأوضاع السياسية والاجتماعية عارم.

ضبط عبد الله التحركات بحذر وجمع الفرقاء، اليوم ستشهد المدينة تظاهرة لم تحدث منذ عقود، سيطوف الشباب الشوارع يعبرون عما يريدونه بحرية، أخيرا سيصرخ المجتمع بوجه الظلم.

حالما وطأت قدم عبد الله أرض شارع النيل الرئيسي حتى جبن وارتعدت أوصاله واقتحمته ذكرى أليمة إذ كان رجال الأمن قبضوا عليه بذات المكان، وقاموا بعصب عينيه وحملوه إلى جهة مجهولة، وهناك تعلم المعنى الحقيقي للخوف، هو الآن يشعر بالوهن، ألم شديد يغزو جسده والوجع ينفذ لعظامه، فآلام الجسد

تشفى، أما أوجاع الروح فتبقى لا تبرأ البتة، تداهم نفس المسكين تضغط عليها توترها تكسر إرادتها!

يلوح وجه سارة في أفق خياله؛ فتحادثه نفسه:

- هتعمل ايه يا عبد الله؟ لو خفت دلوقتى هتخسر سارة، هتقول عليك خاين، هتعرف قد إيه انت مدَّعى وجبان!

الأكيد أن عبد الله لا يهتم بافتضاح أمره، هو لا يهتم برأي أصدقائه، فمنذ سنوات لم يعد يبالي برأي الآخرين، ليس من حق الآخرين الحكم عليه، الشاب دفع فاتورته ولم يلق أحد من رفاقه ما لقيه وحيدا في المعتقل، فقط رأي سارة حبيبته هو المهم بالنسبة له.

للمرة الأخيرة يحاول عبد الله استجماع قوته والتقدم نحو الوجهة التي حددها للجميع، أو لعله يفكر في كيفية الهرب من ذلك المأزق، يتذكر أمه المريضة وأسماء، الآن فقط يفكر عبد الله في الأسرة التي دأب على إهمالها وصار عبئا عليها منذ وفاة والده.

نفس عبد الله مرتبكة، تعلمت الخنوع في السجن، دائما ما تفلح في اختلاق الأعذار للخروج من الأزمات بأقل خسائر ممكنة، هو إتقان الظهور بدور الضحية!

بجدية يفكر فيما سيحدث للأسرة إذا قبضت عليه الشرطة، مجددا الشاب المهتز لم يعد يأمن لأحد حتى صديقه نور، يخشى أن تتكرر المأساة ويخاف أن يستولي نور على المحل وتضيع الأسرة للأبد.

قد يكون عبد الله مصيبا في احتياج أمه المريضة إلى وجوده، لكنه مخطئ جدا بشأن أسماء، الفتاة لم تعد في حاجة لرعايته ولم يعد لوجوده أي أهمية بالنسبة لها، هي الآن مشغولة، وخطتها للخروج من عتمة المنزل وضيقه مهددة بالفشل، وحلمها بالزواج من نور مهدد بالانهيار ومحاولتها الأخيرة للنجاح أسكرت عقلها، طاف النعاس على حاضرها وغفت ولم تستيقظ إلا منذ لحظات لتجد نفسها فوق فراش نور.

منذ عدة أشهو وأحوال نور غريبة، فمزاجه دائم التقلب، وإمعان أسماء في تقديم التنازل لم يأت ثماره منذ المرة الأولى التي خطت منزله بقدميها، وهي تجهد وتحاول بكل ما أوتيت من قوة أن تستخدم كافة أسلحتها، تنجح في بعض الأحيان، فيلين حبيبها ثم يعود لسابق عهده ليحتمي بحضنها كالصغار، يبكي بحرقة لا تفهم سرها، يهدأ ثم لا يلبث ويعود إلى نفوره، يبتعد ويعاملها بجفاء، يعنفها ويتمادى في القسوة.

منذ عدة ساعات استعدت أسماء وترقبت عودة عبد الله من الخارج، تزينت وارتدت ثيابها وغطت وجهها بالنقاب، لم تنتظر كثيرا، وعلى غير عادة عاد عبد الله باكرا إلى البيت، لم تتريث، وبعجلة هبطت من المنزل، هو يوم فاصل في حياتها، ها قد مر العام على وفاة الجدة وانتهى عذر نور الذي تسبب في تأجل خطبتهما لعام كامل، هي الآن في أقصى درجات السعادة تفكر في الخاتم الذي سيزين يدها، موعد الزواج المكان التي ستقضي فيه مع نور شهر العسل.

صعدت أسماء درج منزل نور ودلفت إلى الشقة بمفتاحها الخاص، فقد أعطاها نور المفتاح إمعانا في الثقة وتأكيدا على الحب، بهدوء تلتمس طريقها نحو غرفة نور، للمرة الثانية يفاجئها وجود ابن خالو بالصالة، رؤية الفتى تثير اشمئزازها وحضوره الطاغي بحياة نور يقلقها، تخشى أن يفضحها الفتى المختل الذي اعتدل في جلسته ونهض فور دخولها وهم بالرحيل ثم توقف عندما طالبه نور بالبقاء.

بلا مبالاة طلب نور من أسماء انتظاره في الداخل، جمود وجهه لا يطمئنها وغياب اللهفة بعيونه يربكها، استقبال نور الفاتر كسر فرحة الفتاة، وأحبط حماستها وأدخل الكآبة على

نفسها، دقائق انتظارها الطويلة زادت من المعاناة وأوقدت نار الحسرة بقلبها، تساءلت في نفسها:

- هل أخطأت في تقديم التنازلات؟ هل زهد فيها نور؟ البادي لا يبشر بأي خير!

أخيرا دخل نور الغرفة، أفكارها مشتتة وتفشل في اختيار الكلمات المناسبة، لا تعرف كيف تبدأ حديثها، برعونة تكرر أخطاء الماضي دون قصد تحاول التنفيس عن غضبها:

- احنا مش هنخلص من المعتوه ده بقى والا إيه؟

عقل نور مشغول؛ فهناك يوم حافل ينتظره، منذ عام كامل وهو يحضر لهذا اليوم بإحكام، أعد كل شيء، ضبط ساعته على توقيت الانتقام، اليوم نقطة بداية للأمر الجلل، اليوم سيصعد إلى سفينة العظماء، تواجد أسماء بالشقة هو آخر ما يحتاج إليه، الآن كلماتها الفظة حول أحمد أثارت حفيظته وزادت من غضبه، دون تفكير خرج عن شعوره، لا وقت للجدال، رفع يده في الهواء صفع أسماء على وجهها.

مسكينة أسماء، لا تفهم أنها باتت خارج حسابات نور، لم يعد يهمه أمرها في شيء، ووجودها في حياته لم يعد يعنيه، للمرة

الأولى في حياته يأخذ بنصيحة صديقه الفاشل بودي.. الأمر أكيد، من خلعت لباسها لك، فقد خلعته لغيرك من قبل، وستخلعه لآخر بعدك!

صفعة نور لا تختلف عن صفقة عبد الله، الصفعتان يدميا شفاه أسماء، تسقطاها أرضا، وتدفعاها للانفجار في البكاء على أمانيها المحطمة، الآن يتحتم عليها اتخاذ القرار، إما أن تتقبل الإهانة وتعبرها لتبقي على الأمر، تمعن فى الخضوع وتتنازل من جديد، أو ترحل رأفة بما تبقى من كرامتها، تهجر نور إلى غير رجعة، أحلامها الآن على المحك.

دماء أسماء أربكت حسابات نور وبعثرت تركيزه في داخله، هو يودُّ رحيلها الآن ويحتاج إلى الهدوء والتركيز، ولكن صوت بكائها يتعالى، وتنكمش في أحد الأركان، تنهار وتتكور في خوف، يحاول نور إنهاء الموقف المؤسف، يقترب من أسماء يلتمس جسدها بيده، فتبتعد، لم تعد تثق بيده، صارت تخشاه، يقترب من جديد ويحيطها بذراعه محاولا التخفيف عنها وهو يفكر في الاعتذار.

عناق الأحبة دواء؛ فهو يشفي الروح ويضمد جراح القلب، ونور حضنه الدافئ قد يبث شيئا من الطمأنينة بقلب أسماء،

صفعة نور لم تكن الأولى في حياتها، لابد أن تحترم المرأة رجلها وتقدر ما يمر به من ضغوط وتتغاضي عن إساءاته، لا بأس من تجاوز الأمر من أجل الحب، فقط ستتنازل من أجل الغد، ستنسى صفعة الأمس ستقبل اعتذار حبيبها نور.

أخيرا رقَّت أسماء لنور واحتمت بحضنه من جور يديه، هدأت أنفاسها وسكنت أوصالها المرتعدة، جفت دموعها ولانت من جديد ومنحت نور جسدها بأمل، ارتوت من نهر الحب وغمرتها سكينة لا نهائية، دون إرادة غفت وغلبها وحبيبها النعاس فاستيقظت على صوت المؤذن وهو يرفع أذان صلاة الجمعة.

كسر تردد عبد الله إرادته، هزم خوفه من رجال الحكومة رغبته في الثورة والانتقام، حياة الوالدة وأسماء أهم كثيرا من مشاعر حبه لسارة، هذه المرة لن يتأذَّى وحيدا، سيطول الأذى أقرب الناس إليه، الأمر محسوم؛ فالمسكين لا يمتلك رفاهية المغامرة، الآن يتحتم عليه أن يضحي.

إقرار عبد الله بالمسؤولية الأسرية عدل وجهته ودفعه ليعود أدراجه بخنوع، دلف إلى مسجد السيد محاولا الاحتماء بجنباته، جلس بآخر الصفوف يفكر في سارة التي ضاعت منه إلى الأبد ولم يعر أبا معاذ أي اهتمام؛ فلم يستمع إلى كلمة واحدة من

خطبته العصماء، الشيخ المنتصب فوق المنبر يزعق في الناس ويختبر إيمانهم يحكي لهم قصة صبر الإمام الحسن البصري على ظلم الحجاج بن يوسف الثقفي ورضائه بقضاء الله وقبوله مشيئته.

بعد دقائق من دخول عبد الله المسجد هبطت أسماء من منزل نور خرجت إلى الشارع، أفزعها صوت الأذان، أنهى سباتها بتوتر فقفزت من فراش نور وارتدت ثيابها على عجل، أيقظت نور ليلحق بالصلاة وتركت الشقة دون أن ترتدي نقابها.

صارت أسماء والخوف في قلبها، عقلها مرتبك وطريقتها المعتادة في مداراة الأمر لن تفلح الآن، خروجها من الشارع ومن ثم العودة إليه لن يفلح، ماذا ستفعل لو رآها أحد من الناس؟ كيف ستهرب من عيون النساء في الشرفات؟ الفزع يعصف بذهنها، وبخطوات غير منتظمة تسير في الشارع الخاوي، الغافلة لم تفطن بعد لأمر النقاب ولا تشعر بانكشاف وجهها.

تذكرت كلمات نور، الشاب الذكي لم يجد مفرا من الكذب عليها وطمأنتها والتشديد على حبه وتجديد وعوده بالزواج، كلمات الأمس الآسرة أعادت لأسماء الثقة، طمأنتها ودفعتها للابتسام، لم تهتم بنظرات أم سعيد الجارة الواقفة في الشرفة ولم تتطلع لـ ابن خالو المار إلى جوارها متوجها نحو أول الشارع، حالما

تتزوج من نور ستنجب له عشرة أطفال؛ يأسرون قلبه ويملؤون حياته ويبعدونه عن الجميع سواها، ستسير وحيدة إلى آخر الشارع في محاولة أخيرة منها للمواراة، ستعود بعدها إلى المنزل، أخيرا ستبوح لأمها بأمر نور وتحدثها عن نية شريك أخيها، وتصرّح لها برغبته في الزواج منها.

عبور أسماء بوجهها المكشوف إلى جوار "ابن خالو" لم يلفت انتباهه، منذ شهور وهو يعلم بأمرها يفطن إلى زياراتها الصباحية، لا يهمه أمرها في شيء؛ هو الآن مشغول يحاول التركيز حتى لا ينسى شيئا من أوامر صديقه العزيز نور.

في الشهور الماضية عمد نور إلى تقوية أواصر علاقته بأحمد ابن خالو، والتقرب أكثر من الفتى ومعاملته كصديق حقيقي من أجل غرض بالغ الضرورة والأهمية بالنسبة لنور.

حكاية الجدة القاسية عرّته أمام نفسه وأزالت الغمامة من فوق عينيه، بعد كل تلك السنوات اكتشف نور حقيقته، ورأى وجهه الحقيقي.. هو ابن سفاح.

وسط دوامات الحزن وقسوة الحقيقة حلم نور بالسفينة، جاءه الإلهام ودله عقله الباطن على الطريق وأضاء له الدرب، أيقظ أحلام الطفولة في نفسه، رب ضارة نافعة، والانتساب لعائلة

الحاج راجح أمر بالغ النفع لا ضرر فيه على الإطلاق، أحاديث أهل الشارع والمجتمع لن يهتم لها أحد، ستمحى مع السنوات بالمال، ستصمت الألسنة بالقوة سيمحى عمره الفائت من ذاكرة الناس.

لم ينتظر الشاب كثيرا، فالجدية جزء من شخصيته، حزم أمره وزار زين في المصنع وحكى له حكاية الجدة، ثم طالبه بالاعتراف به، لكن خاب ظنه ورفض زين الاعتراف بالحقيقة، وهو المتعطش لفتى من صلبه وأنكر حكاية الجدة، هاج وماج وأنهى اللقاء ثائرا.

لسنوات شكلت المعادلات الرياضية ونظرية الاحتمالات جزء أصيلا وهاما من عمل نور في مجال التسويق وطبعت جانبا من شخصيته ودفعته لوضع عدة احتمالات للقائه بزين، أحدها رفض الرجل الاعتراف بأبوته له، من أجل هذا وضع الخطة البديلة التي ستحمل زين على الاعتراف به جبرا.

هدف.. طريق.. وسيلة.. ثلاث كلمات قاطعة ترسم معالم الخطة اللازمة لإنجاز أي عمل جاد، هدف نور واضح لا سبيل للعدول عنه، الحصول على إرث عائلة الحاج راجح ذلك هو التعويض الوحيد المناسب عن الأضرار التي لحقت به جراء جرم زين، الطريق لن يبتعد كثيرا عن رأس سارة ابنة زين والوريثة

الوحيدة للعائلة، موت الفتاة سيقطع نسل العائلة وسيجبرهم على الاعتراف به، أحمد ابن خالو هو الوسيلة الأكثر أمانا والتي ستكفل وصول نور لهدفه.

الفتى المختل يسهل السيطرة عليه واقتياده ودفعه لتنفيذ مخطط نور، بقليل من الحقيقة وشيء من الصبر ومزيد من المثابرة، شهور مرت ونور يملأ قلب أحمد بالكراهية، يزرع بعقله الحكاية، يبث في نفسه الحقد ويحضه على الانتقام من زين قاتل أبيه أحمد الكبير- كما قالها نور- يشرح له الكيفية التي استولى بها راجح على إرث جده إبراهيم السوهاجي.

ابن خالو ساذج، ونور خدعه بحكاية منقوصة ملأ بها فراغات عقله، وبالرغبة في الانتقام، وضع له الخطة وأوضح له الطريق، اشترى له السكين، هو الآن يخرج من شارع الشهيد، ويقترب من بوابة منزل الحاج راجح، مكان عبده البواب خاو.. الرجل مشغول في الصلاة، بحرص مصطنع يرتقي الفتى درجات السلم، بإصرار يضغط على جرس شقة الحاج حضوره غير المتوقع أدخل السعادة على وجه سارة.

منذ الأمس وسارة تحاول الوصول لعبد الله دون جدوى للمرة الأولى منذ زمن بعيد وفى محاولة منها لوأد موجة التظاهرات

أقدمت الحكومة على قطع الاتصالات ووقف خدمة الإنترنت كمحاولة منها لعزل المجتمع وتفكيك سبل التواصل بين أفراده.

حديث أبيها زين الخطير بالأمس حول عزم الحكومة على إنهاء الوضع الفوضوي بأي شكل ممكن حتى لو وصل الأمر لإطلاق الرصاص على المتظاهرين أضنى قلبها وأشعل نار الخوف بداخلها، روح عبد الله أهم بكثير من قناعاتها بالسياسية، وأحلامها بالعدالة الاجتماعية.

منذ اللحظة الأولى التي خطت فيها سارة المكتبة وهي تحاول تحديد طبيعة مشاعرها تجاه عبد الله، تفشل في تفسير أحاسيسها وانشغالها به واقتفائها أثره، تطلعها للقائه وشغفها بحديثه وولهها بوجوده، بالأمس فقط فطنت لحقيقة وضع مشاعرها تجاه ذلك المناضل وخلت من الشك، حبها لا ريب فيه، وهي الآن على يقين بأنها تحب عبد الله بكل ما تحمل الكلمة من معان.

ظهور ابن خالو المفاجئ أبهج قلب سارة، فحضوره الآن إشارة رحمة من السماء، الآن فقط تستطيع الوصول لحبيبها، الآن تستطيع تحذيره والتشديد عليه في أمر الخروج للتظاهر عن طريق ابن خالو، هي لا تثق في الآخرين من رجال والدها، تعلم طيبة قلب الفتى وتطمئن إليه، لم تسأل ابن خالو عن السبب وراء

حضوره، طالبته بالانتظار بخفة دلفت إلى غرفتها وأخرجت ورقة من أحد الأدراج بكلمات محددة قاطعة يشوبها التهديد خطت تحذيرها:

- إذا خرجت من المنزل اليوم فلن تراني بعد ذلك أبدا.. أحبك.

لم تغب سارة كثيرا داخل غرفتها، يمر الوقت وعبد الله في خطر، خرجت من غرفتها على عجل وأسرعت نحو الصالة فوقعت عينها على ابن خالو، ولم تكن من عادات الفتى الدخول إلى الشقة، في المرات القليلة التي جاء حاملا بعض لوازم البيت لم يتجرأ على دخول الشقة قط!

أثارت نظرات الفتى الغريبة بالغة العدوانية قلق سارة، هي وحدها في المنزل فوالدها وجدّها في المسجد، والممرضة في الطابق العلوي، والخادمة تغسل الثياب في الأعلى، حاولت سارة أن تتفادى نظرات أحمد المريبة، ولإنهاء الموقف بادرته قائلة:

- خد اجرى بسرعة، وادّي الورقة دي لعبد الله وارجع طمني.

لم يعلق وأخذ الرسالة ودسها في جيبه بجانب الورقة المالية التي منحتها له الفتاة، لم يتحرك وظل جامدا على حالة صمته وثباته، ازداد توتر سارة واستفزها موقفه الغريب غير المعهود، لا وقت لغباء الفتى، فكل دقيقة تمر الآن تعرض حياة عبد الله للخطر..

- إنت واقف متنح كده ليه؟ يا للا امشى بسرعة.

كلمات سارة الحاسمة ولغتها الآمرة المهينة كانت بمثابة أعواد كبريت أشعلت النيران في نفس ابن خالو، وجددت عزمه على ما جاء من أجله، أخرج سكينا من بين طيات ثيابه وأشهرها في وجه الفتاة التي أذهلتها المفاجأة، تجمد الدم في عروقها وتسارعت دقات قلبها، وقفت ساكنة دون حراك ونسيت خطابها لعبد الله، بل نسيت كل شيء إلا حياتها المهددة بالخطر الآن.

حتى الآن يسير ابن خالو طبقا لخطة نور لم يفكر في الخروج عن النص، لم يبتكر جديدا، بل التزم بالخطوات كما شُرِحَت له ودُرِّب عليها من نور الجالس وسط المصلين بالمسجد الآن، يُظهِر خشوعا ويستمع إلى شيخه الجديد أبي معاذ وهو يتوعد الخارجين عن طاعة الله والرسول وأولى الأمر والساعين للفتنة الغافلين عن تردي نفوسهم؛ بعذاب الله وغضبه.

لم يترك نور شيئا للصدفة خطته شاملة كاملة الأركان، علاقته القريبة من الشيخ أبي معاذ جزء منها ستار يرفع الشبهات، ركيزة تثبت أقدام نور في الشارع وتدعم دعواه أمام العائلة، كراهية نور العميقة للرجل ترسخ وجوده في الشارع رغم نذالته، ويبقى أبو معاذ ورقة رابحة لا يمكن لأي شخص كان، من الحالمين بالوصول للسيادة، الاستغناء

عنها أبدا.

طافت عيون نور بالمسجد وقلّبت وجوه الحضور، في الغد القريب سيفسحون له المجال وسينهضون فور رؤيته، سيخلو له مكان بالصف الأول، تماما كما يليق به. بالصدفة وقعت عيناه على بودي المنزوي بأحد الأركان مطأطئًا الرأس، والحزن والانكسار باديان عليه، فابتسم.

في الأعلى بدأ ابن خالو الاقتراب من سارة وبيده سكينه، وراية الفزع خفاقة تحلق فوق رأس الفتاة، انعقد لسانها من الخوف، فلم تفكر حتى في الاستغاثة ورفع صوتها، أيقنت منه الشر وسوء النية، شُلّت حركتها وارتفع خفقان قلبها، بالكاد بدأ عقلها إدراك ما يحدث، وفطنت للخطر المحدق بها، قدماها المتسمرتان بدأتا تتحركان، التفّت حول منضدة الطعام، وبريق

نصل السكين يلمع في عينها ويزيد من محنتها، وصراخها لن يفيد ولن يصل لأحد، فمكبرات الصوت أعلى المنزل ولن يسمعها أحد.

فكرت في تهدئة الوضع والحديث إلى لفتى المختل ومحاولة احتواء غضبه:

- إنت عايز تقتلني؟ إنت مش خايف على زعل عبد الله حبيبك؟

كلمات سارة ساذجة.. محاولتها تهدئة ابن خالو بذكر عبد الله فاشلة تماما في غير محلها، تُهزم ويفشل ريحها أمام كلمات نور النافذة الناشبة في ذهن أحمد، الراسخة بنفسه، والمدعومة بأفعال أبيها وتعاليه ومبالغته في إهانة الفتى والتنكيل به.

- أبووكى قتل ابوووويا!!!!!!! وجججججدك سررررررقنا

هكذا جاء الرد الذي لم تفهمه سارة، لكن حاولت مجاراة ابن خالو وفتح أبواب الحديث بإنكارها ذلك، إلا أن حركة قدميه باغتتها ودفعتها للتحرك للبحث عن الطريق الأمثل لتفادي الفتى المختل والهرب من سكينه، استمرت قدماها في الالتفاف حول المنضدة، وفشلت في تقدير المسافة المناسبة الأخيرة، تفادت ضربة

من سكين أحمد بساعدها وتطلعت لباب الشقة الموارب، الفتى الغافل نسي أوامر نور ولم يغلق باب الشقة بعد دخوله.

أخيرا لاح لسارة الأمل، ركضت نحو الباب بسرعة، ولسوء حظها تعثرت وسقطت على الأرض وأضحت في تمام الجاهزية للموت على يد ابن خالو.

ببطء تقدم ابن خالو، اقترب من جسد سارة المسَجَّى فوق الأرض ولم يكترث للدماء التي تسيل من ساعدها، توتره أفقده التركيز يحاول تغيير وضعية السكين بيده من أجل إتمام طعنته النافذة كما دربه نور، دون أن يشعر سحبت سارة البساط من تحت قدميه فتعثر وسقط السكين من يده، سقط هو أرضا، تطلع للسارة التي ابتعدت عن يده ونهضت مسرعة رغم جرحها وبدأت تركض نحو الباب.

بسرعة لملم الفتى شتات جسده وأمسك سكينه من جديد وتتبع أثر سارة التي راحت حافية تركض فوق الدرج، ووتيرة نبضات قلبها تتزايد وجرحها ينزف بغزارة ويؤثر على تركيزها، ويشعرها بالوهن، تتعثر وتسقط مرة أخرى، ولرغبتها الفطرية في الحياة والنجاة من الموت تقف من جديد تتابع فرارها.. أخيرا تصل لبوابة المنزل.

لا أثر ل عبده البواب في الشارع الذي خلا من الحركة، صوت أقدام ابن خالو يعلو ويزيد من محنتها، ودون تفكير تهرع نحو شارع الشهيد، الدماء تغطي ثيابها والفزع يملأ عينيها والشحوب بادٍ على وجهها، بالكاد تصل لباب المسجد تدلف بقدميها إلى الداخل وتسقط مغشيا عليها.

أثار دخول سارة الدرامي المسجد الهرج بين المصلين، المفاجأة جمدت عيون الجميع أخرست صوت أبي معاذ، ظن البعض أن الفتاة ماتت، أو أصابها مس من الجنون مرددين:

- لا حول ولا قوة الا بالله..

عبد الله كان أول الراكضين نحو سارة، وبقلب المحب شق الصفوف وقفز فوق بعض المصلين ووصل لسارة، لم يزل يذكر شيئا مما تعلمه في كلية الطب، أمسك بيديها فوجد النبض ما زال ساريا بجسد الفتاة، لم ينتظر كثيرا، وبحرقة العاشق صرخ بأعلى صوته:

- حد يتصل بالإسعاف.. مية بسكر بسرعة يا ناس.

خلع عبد الله قميصه لفَّ به ذراع سارة وحاول إيقاف النزيف، حملها بين يديه ولم يعبأ بزين الذي وصل إليها متأخرا،

ذهول الرجل كبير، ففلذة كبده غارقة في دمائها أمامه ولا يستطيع فعل شيء!

- يا نجس يا ابن الأنجاس.

صرخة الشيخ حمادة نبهت زين وأيقظت عقله المصدوم، دفعته للنظر نحو باب المسجد حيث ابن خالو وسكينة الملطخ بدماء ابنته الوحيدة سارة، لم يطل الفتى وقفته وفر هاربا نحو المنزل، نسي زين ابنته المصابة وتركها بيد عبد الله وخرج يركض خلف ابن خالو ومن خلفه حمادة ربحو ومن ورائهما أهل الشارع وعدد من أتباع الشيخ.

خلت أركان المسجد فلم يعد في الداخل سوى عبد الله الذي ما أن تيقن من سطحية جرح سارة حتى تركها وخرج مقتفيا أثر الجموع تاركا حبيبته إلى جوار جدها العاجز عن التحرك والناظر نحو نور بارتياب، عبد الواحد البقال الواعي لما يحدث الرافض لتكرار ذنب أقدم على فعله منذ سنوات بعيدة ولم تبرأ منه نفسه حتى الآن.

لم يجد نور المصدوم بعد فشل ابن خالو مفرا من ترك المسجد والخروج إلى الشارع واتباع الجموع الغاضبة؛ فبقاؤه سيثير حوله

الشبهات، ولا بد أن يبرئ ساحته أمام راجح وزين وإلا وقع أسيرا في دائرة انتقامهم.

خرج نور مسرعا وانضم للجموع، عبرهم وتقدم حتى صار على مقربة من عبد الله وأبي معاذ وزين الذي سبق الجميع إلى الخارج، أشهر مسدسه صوب ابن خالو الراكض أمامه، بالفعل نجح في إصابة إحدى قدميه وسقط أرضا في ذات المكان الذي سقط فيه أحمد الكبير منذ سنوات بعيدة.

عبثا حاول الفتى النهوض، هو الآن عاجز لا يستطيع حراكا، وخطوات الجموع القادمة إليه تفزعه وتدفعه لتكرار المحاولة والزحف نحو بوابة المنزل رغبة في الاحتماء بها وأملا في النجاة من الهلاك المحدق به من كل جانب.

أخيرا وصلت الجموع إلى موضع أحمد وتمكنت منه، التفت حوله فلم يجد خرم إبرة يمكنه النفاذ منه وزاد فزعه الرهيب، المشهد مكرر لا يحتاج أهل الشارع اليوم كلمات أبي معاذ الحماسية ولا تنقصهم صرخاته بوجه أحمد ابن خالو، الجميع يحملون الأحجار، الجميع يستعدون للقتل بدماء باردة، هم فقط ينتظرون ضربة البداية للإجهاز على حياة أحمد كما أجهزوا على حياة أحمد الكبير منذ سنوات بعيدة.

أغلق أهل الشارع بوابة منزل أحمد الصغيرة بأجسادهم القوية، يتعالى نواح عزة ويتزايد صراخها، تحاول الخروج لتقضم أذرع سجانيها، تريد مقايضة حياتها بحياة أحمد، تدرك جيدا ما ينتظر وحيدها الصغير، الجدة لم تعد هناك لتحمي الصغير، لم يعد باستطاعتها الاحتمال، تريد أن تموت قبل أن ترى وليدها يُذبَح، تحاول الفكاك للمرة الأخيرة من أسر المنزل، تحاول القفز من النافذة لكنها تقابل بلكمة لا تعرف مصدرها تردها إلى داخل المنزل، تشعر بالهزال والدوار يغزو رأسها، تحاول المقاومة لكنها تفشل ويغشى عليها.

لم ينتظر زين كثيرا، وشرع في استكمال كتابة المأساة، وأمسك بحجر وقذف به نحو أحمد الملقى على الأرض غارقا في دمائه، تبعه الشيخ حمادة ربحو، وتوالت الأحجار، ومن بعده تقدم عبد الله فألقى بحجر ثالث نحو أحمد. لم ينتظر نور، تقدم هو الآخر وأمسك بحجر رابع وألقاه نحو صديقه أحمد تأكيدا على براءته من محاولة اغتيال سارة، هو الآن يفكر في أمر واحد فقط؛ خسارة الجولة الأولى لا تعني خسارة المعركة لا بد أن يجد نور ابنَ خالو آخر يجهزه بصورة أفضل، لابد أن يصل لمبتغاه حتى لو تطلَّب الأمر تجربة مليون ابن خالو!

ابن خالو

أختك يا نجس!!

جملة ألقاها حمادة رنجو - الشيخ "أبو معاذ" - منذ عشرين عاماً على جسد أحمد الكبير، بمسمع ومرأى من أهل الشارع جميعاً، ونور الصغير الذي ترسخت الجملة فى أعمق نقطة بعقله، كنقطة بداية لكل شئ لكنه اكتشف خطأ اعتقاده مؤخراً عندما قررت الجدة البوح بما لديها من أسراروهي على فراش الموت.

تصميم الغلاف : أحمد الصباغ

9789777513104

رواقد للنشر والتوزيع